جزوه نثر عباسی ۱

دکتر حبیب کشاورز

naasar.ir

النّثر العبّاسيّ

نظرة عامّة

واصل النثر العباسي ما لمسناه من فنون وأساليب في آخر العهد الأمويّ ، وراح ينمو في ظلّ الحضارة الجديدة ، متخطّياً الحدود التي وقف عندها الشعر ؛ فظهرت فيه آثار المدنيّة العباسية والتفكير العباسي أكثر مما ظهرت في الشعر ؛ وإذا استعرضنا **أغراضه وأساليبه** وقفنا على مدى ما وصل إليه من هذا القبيل.

١ – لقد **ضعفت الخطابة** في هذا العهد شيئاً فشيئاً . **ولذلك** لضعف الدّواعي إليها ولضعف القدرة عليها . ومن أكبر دواعي **الخطابة** روح العصبيّة والحزبية . ففي صدر العهد العباسي ظلت أسباب الخطابة قوية لما جرى من انقلابات خطيرة وما ظهر من دعوات مذهبية حادّة ، وثورات اجتماعية عنيفة ؛ ولم يكن اختلاط العرب بالأجانب بعد شديد الأثر على الألسنة ؛ فكان للخطابة بسبب كلّ ذلك شأن يُذكَر ، فتعدّدت موضوعاتها وتشعّبت مناحيها . ثم أخذ ظلّها يتقلّص عندما استحكم الأمر لبني العبّاس وأصبح الفضل للسيف والسلطان لا للّسان ، وعندما خبت نار الأحزاب والثورات وضعفت الفصاحة العربية ، وانصرف الناس الى الثقافة والكتابة للإقناع ، واستعاضوا عن الألسنة تخطب بالأقلام تكتب . وحلّت محلّ الخطابة الرسائل الإدارية ، والمنشورات الدولية ، والمناظرات العلمية والأدبية ؛ ولم يبقَ لها إلا بعض الأصداء في المساجد والجوامع تبسط الموضوعات الدينية في الجُمَع والأعياد .

٢ ـ أما **الكتابة فلم تعد مقصورةً على الدّواوين**، بل تعدّتها الى وصف الحضارة الجديدة بما فيها من لهوٍ وترف وقصور ورياض، والى وصف النفس البشريّة بما لها من نزعات وأهواء، ونقد الكتب الأدبية وشرحها، وبسط المسائل العلمية والدينية، ورواية القصص والأخبار الخيالية والتاريخية، والمفاخرات وما الى ذلك.

٣ ـ وتعدّدت **فنون الكتابة** في العهد العباسي فكان منها **الرسائل الاخوانية** في الشكر والعتاب والتعازي والتهاني والاستعطاف وغير ذلك؛ ومنها **التصانيف العلمية والأدبية، ومنها المقالات، والمناظرات، والعهود، والروايات القصصيّة، والمقامات...**

٤ ـ ظهر أثر الفلسفة والعلوم في النثر العباسي **فاتسع مجال التفكير**، وعُني الكتّاب **بربط الأسباب بالمسبّبات**؛ وامتدّت العقول، بتأثير النقل والترجمة، الى وضع الكتب واتباع الأساليب التصنيفيّة فيها. ـــ وظهر الأثر الفارسي[1] والآداب الفارسية والترف العباسي في الكتابة، فمالت الى **السهولة في العبارة، والتأنق في اللفظ، والجودة في الرصف، وإطالة المقدّمات، وتنويع البدء والختام، ومالت الى الغلوّ والإكثار من الألقاب والدّعاء**، كما مالت قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء الى **التفصيل والإطناب**. ـــ وظهر الأثر العربي أيضاً في الكتابة فكانت **جزلةً متينةً** لا تخلو من **إيجاز أحياناً**، وظهر الإيجاز بنوع خاص في التوقيعات.

تلك كانت أهم ميزات النثر العباسي، أوردناها على وجه التعميم والتغليب؛ وسنرى أنّ ذلك النثر سينحدر شيئاً فشيئاً في سبيل التنميق والزخرفة حتى يصبح مع الأيام مجرّد صنعة.

---

١ ـ من الآثار الفارسية التي بلغت العهد العباسي كتب في صناعة المراسلات وما قد يحسن في بدئها وما قد يحسن في نهايتها.

إبنُ المُقَفَّع

(١٠٦ — ١٤٢هـ/ ٧٢٤ — ٧٥٩م)

أ — تاريخه :

١ ـ ولد ابن المقفع في جور ، ونشأ فارسياً زرادشتياً.

٢ ـ أتقن العربية وطار صيته في الكتابة فاستدعي الى كرمان يكتب لابن هبيرة... ثم كتب لعيسى ابن علي الى أن قُتل سنة ٧٥٩.

٢ — أدبه :

١ ـ كان من ذوي العقل. أشهر كتبه «كليلة ودمنة» ، «الأدب الكبير» ، «الأدب الصغير» ، «رسالة الصحابة».

٢ ـ عاش في طور انتقال وكان فارسي النزعة ، علوي السياسة ، يدين بالإسلام ظاهراً ، ويأخذ بالتقية.

٣ ـ كان في رسالة الصحابة مُصلحاً ، وقد عالج السلطة والبطانة والقضاء والجندية وغيرها ، وكان شيعي النزعة.

٣ً ـ كتاب كليلة ودمنة :

أ ـ حكمة في ثوب خرافة :

١ ـ حكايات وأقاصيص على ألسنة البهائم والطير تدور حول الحياة البشرية في شتى نواحيها.

٢ ـ يسود فيها العقل كما تسود الاستقامة والعدالة.

ب ـ أصل الكتاب ونقله الى العربيّة :

١ ـ جمعه الفرس من الهندية ونقله ابن المقفّع الى العربية.

٢ ـ هدف ابن المقفّع من وراء نقله إصلاح المجتمع العباسي.

جـ ـ مضمونه :

أدب الملوك :

١ ـ ضبط النفس ومعرفتها، وحسن السيرة، والعهد والوفاء، والحلم والتأني والتعقل.

٢ ـ السياسة الداخلية : سهر وفطنة.

٣ ـ السياسة الخارجية : ملاينة وسلام.

أدب الرعية :

١ ـ طاعة واخلاص.

٢ ـ التضامن إزاء الملك الظالم.

٣ ـ الاعتصام بالصبر والأناة.

أدب النفس :

تقديم العقل، وضبط النفس، والصدق. والرفق والملاينة، والحذر، وعدم الاسترسال الى النساء.

أدب الصداقة :

١ ـ نوعا الصداقة : تبادل ذات النفس، وتبادل ذات اليد.

٢ ـ اختيار الصديق بعناية كبيرة.

د ـ قيمة كليلة ودمنة من الناحية الفكريّة :

١ ـ في كليلة ودمنة فلسفة اجتماعية أخلاقية، ودروس تشريعية، ونظرات ما ورائية وعلم وعمل.

٢ ـ فلسفة حياة عملية شريفة، وفلسفة موضوعية مثالية، ونزعة تشاؤمية، ونزعة عقلية.

٣ ـ صوفية هندية، ونزعة أفلاطونية، ونزعة أرسطوطالية، ونزعة هندية شرقية.

٤ ـ فوائد تاريخية قيمة.

هـ ـ المثل في كليلة ودمنة :

١ ـ يأتي المثل في كليلة ودمنة إطاراً أو برهاناً، أو شاهداً.

٢ ـ الأمثال مسرحيات تعالج قضايا البشر على ألسنة البهائم والطير.

٤ً ـ الأدب الكبير والأدب الصغير:

١ ـ كتابا حكمة وموعظة في أدب السلطان وأدب النفس وأدب الصداقة.

٢ ـ لها قيمة فكريّة وأسلوب خطابيّ جافّ، صريح، صارم.

٥ـ مدرسة جديدة في الكتابة:

١ ـ عدّ ابن المقفع رأس التجديد الأسلوبي في النثر.

٢ ـ انتقلت الكتابة معه من الرسائل الوعظية الى الأدب الجميل.

٣ ـ تمتاز كتابته بالسهولة، والدقة، والصقل، والمنطق، والإطالة والهدوء في غير إسهاب.

أ ـ تاريخه:

هو أبو محمد عبدالله روزبه[1] بن داذُويه المعروف بابن المقفّع. وُلد بقرية جور من بلاد فارس سنة ٧٢٤م / ١٠٦ هـ، ونشأ فارسيّاً يسعى في تحصيل ثقافة الفرس، كما نشأ زرادشتيّاً[2] يتّبع مراسيم ذلك المذهب في إيمان وأمانة، وما إن شبَّ حتى انتقل الى البصرة واحتك فيها بالعرب والثقافة العربية وإذا هو فارسي صميم، كما هو عربيّ مقيم، واذا هنالك مزيج غريب من عقلية فارسية وعقلية عربية، ولغة فارسية ولغة عربية، وثقافة فارسية وثقافة عربية، واذا هنالك شباب من أناقة ورفعة وإباء، وعقل ولا كالعقول، يجول في جميع الميادين، ويتنقل على أكتاف الأيام والسنين من القديم القديم الى الجديد الجديد؛ وقلم سيّال يرافق العقل الكبير، ويكتب بأسلوب عربي فارسيّ، في لغة سمحة، وتفكير عميق؛ واذا هنالك صيت يتعالى وينتشر فيستميل الأنظار والقلوب. وما هي إلا مدة وجيزة حتى استدعي ابن المقفع الى كرمان يكتب لعمر بن هبيرة، ثم ليزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق من قبل مروان الأمويّ.

ولما كان العهد العباسي اتصل ابن المقفّع بعيسى بن عليّ عمّ السفّاح والمنصور، وهو والٍ على الأهواز، فأسلم على يده وكتب له. وقد قُتِلَ في عهد أبي جعفر المنصور سنة ٧٥٩ وله من العمر خمسٌ وثلاثون سنة.

---

١ ـ معنى هذا الاسم بالفارسية «المبارك».

٢ ـ الزرادشتية نسبة الى زرادشت (حوالي ٦٦٠ ـ ٥٨٣ ق. م) وهو مصلح الديانة القديمة في ايران ومنشئ الطائفة المجوسية.

٢ً ـ أدبه :

أ ـ أهم آثاره :

لابن المقفّع آثارٌ عدّة عُرِف منها :

١ ـ **كليلة ودمنة** : طبعاته كثيرة أشهرها طبعات الأب شيخو، وخليل اليازجي، ودار المعارف بمصر، ودار الأندلس ببيروت. وقد أخرجت دار المعارف الكتاب إخراجاً علمياً وفنياً ذا قيمة كبيرة، وحاولت دار الأندلس أن تخرجه إخراجاً علمياً أيضاً فكانت المحاولة حسنة.

٢ ـ **الأدب الصّغير**

٣ ـ **الدرّة اليتيمة أو الأدب الكبير**.

٤ ـ **كتاب التاج**.

٥ ـ **رسائل ابن المقفّع وأشهرها رسالة الصحابة**.

ب ـ نزعات عامّة ـ رسالة الصحابة.

١ ـ **أدب إصلاح** : أطلّ ابن المقفّع على عصره إطلالة الحكيم الذي لا يهتمّ إلا للعقل وأموره. إنه أحبّ الحياة على أنها حياة، ومال الى اللهو على أنه لهو، ولكن على خطة العقل. قال في «الأدب الصغير» : «على العاقل أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع حاجته الى ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها الى إخوانه وثقاته... وساعة يخلّي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحلّ ويجمل، فإن هذه الساعات عون على الساعات الأخرى، وإن استجمام القلوب وتوديعها[1] زيادة قوة لها وفضل بُلغة». وهكذا أراد أن يكون حكيماً وأن يجعل **التّوازن بين النّفس والجسم** وسيلةً من وسائل البلوغ الى الكمال الإنساني الذي نَشَدَهُ بكلّ جوارحه، والذي بناه على أساس طبيعي. وهذا الكمال الذي أقام عليه شخصيّته، أراد أن يُقيم عليه مجتمعه، فوضعَ له كتباً شتّى كان أشهرها «**كليلة ودمنة**»، و«**الأدب الكبير**»، و«**الأدب الصغير**»، و«**رسالة الصحابة**».

---

١ ـ توديعها : تركها تطمئن وتهدأ.

لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها، وذلك لأنّ عدد الناس في ضَعَفَتِهِم وجُهّالهم الذين لا يستغنون برأي أنفسهم، ولا يحملون العلم، ولا يتقدّمون في الأمور. فإذا جعل الله فيهم خواصّ **من أهل الدين والعقول**، ينظرون إليهم ويسمعون منهم؛ واهتمّت خواصهم بأمور عوامّهم وأقبلوا عليها بجدّ ونُصحٍ ومثابرة وقوّة، جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم، وسبباً لأهل الصلاح من خواصّهم...

وحاجة الخواصّ الى الإمام الذي يُصلحهم الله به كحاجةِ العامّة الى خواصّهم وأعظم من ذلك. **فبالإمام يُصْلِحُ الله أمرهم، ويكبت أهل الطّعن عليهم، ويجمع رأيهم وكلمتهم، ويُبيِّن لهم عند العامّة منزلتهم، ويجعل لهم الحجّة والأيد في المقال على من نكّب عن سبيل حقّهم**».

وان في هذه الآراء لنواة صالحة لما سيفصّله الفارابي بطريقته الخاصّة، وان فيها ولا شكّ أثراً للتيّارات الفكريّة الإغريقيّة التي ستجتاحُ البلاد العربية في عهد المأمون وما بعده، والتي كانت منتشرة في الشرق منذ عصور.

والذي نلاحظه من نظرتنا الوجيزة الى أدب ابن المقفّع أنه **أعجميّ الفكرة، أعجميّ النزعة**، يكتب في العربية وهو يتجاهل ما فيها من آثار، ويعتمد العقل دون الدين في ما يكتب فيجمع من التاريخ وأقوال الحكمة ما هو بعيدٌ عن الدين من غير أن يناقض الدين.

٣ ـ كليلة ودمنة:

أ ـ حكمة في ثوب خرافة: كتاب «كليلة ودمنة» ينطوي على حكايات وأقاصيص خرافية على ألسنة البهائم والطّير. وهذه البهائم والطّير تمثل الحياة البشرية في نواحيها المختلفة؛ وفيها من النزعات والأهواء والتيارات الفكرية ما نجده بين البشر في مختلف تلاوينه ومنعرجاته؛ وفيها أرباب الجدل والفقه والمنطق وعلم الاجتماع والسياسة؛ وفيها الأخيار والأشرار والمحسنون والمسيئون. ومن ثمّ فالكتاب هو **حياة مصغّرة**، هو الميدان الوسيع في صفحات. وهذه الحياة الممثلة المصوّرة بطريقة خرافيّة، **تجري موزونة بميزان الحكمة، وشرع الطبيعة المستقيمة، وحكم العقل الذي يميّز بين**

الخير والشر، وبين الاستقامة والاعوجاج، ويَسُنّ الدساتير في هدوء علميّ، وفي صرامة القضاء المسيطر على كل موجود.

فالكتاب إذن مبنيٌّ على **المَثَل الخرافيّ**، وهو مصدَّرٌ ببعض أبواب تنطوي على مقدّمات عامة في أصل وضع الكتاب وشرح أحوال برزويه الطبيب وما الى ذلك ممّا له علاقة بترجمة كلية ودمنة وموضوعه. وهو يسير على طريقة أساسها السؤال والجواب. أما السؤال فمن ملك هندي اسمه **دبشليم** لا يُعرف زمن وجوده، وأما الجواب فمن فيلسوف حكيم اسمه **بيدبا**. أما دبشليم فرجل متعطّش الى معرفة الحكمة وسياسة البشر، وهو رمز لكلّ ملك في كل مكان وزمان، وهو يوجه الأسئلة عن طريق الاستجواب والاستعلام في كل ما يريد المؤلف أن يبسط البحث فيه. وأمّا بيدبا فرجل الاطلاع الواسع الهادئ الذي لا يخشى سلطاناً ولا يعرف المحاباة، رجل الحقيقة التي يعرفها ويريد نشرها في لين وسياسة؛ وهو يُجيب أبداً في رصانة وبُعد نظر ومعرفة عميقة لطبائع الناس وطباع الحيوانات، ويجعل جوابه مثلاً يُفصّله في بابٍ كامل من أبواب الكتاب، ثم يُدخل في هذا المثل الأكبر أمثالاً صغرى يستشهد بها أبطال القصص على

صدق ما يُقدّمون من آراء ؛ وهكذا تأتي الأمثال **مركّبة تركيباً وثيقاً متداخلة** تداخلاً يُجبر القارئ على تتبّع الباب من أوله الى آخره بحيث لا تفوته حكمة. وقد تتبّع بيدبا هذه الطريق تمشّياً على عادات الهنود خصوصاً والشرقيّين عموماً، ورآها الطريقة المُثلى التي تصل الى غايتها في سياسةٍ ولين وتفكيه، والتي لا تجرح العنيد إذا قبّحت له عناده، ولا تسوء الظالم إذا كشفت له عن سوء ظُلمه... قال ابن المقفّع: «إذا جُعِلَ الكلام مثلاً كان ذلك أوضح للمنطق، وأبين في المعنى، وآنق للسّمع، وأوسع لشعوب الحديث».

وهكذا كان كتاب كليلة ودمنة أبواباً أبواباً، وفي كلّ باب أمثال ضمن أمثال. وهكذا كان كلّ باب يبتدئ بسؤال من دبشليم ملك الهند يتبعه جواب بيدبا الفيلسوف وهكذا كان في كلّ باب موضوعٌ مطروح للبحث، منظور إليه من مختلف نواحيه عن **طريق التمثيل**، يُبيّن حسناته وسيّئاته **شخوص حيوانيّة المظهر بشريّة الحقيقة**، يُحقّق بعضها حكمة الموضوع فيُحسِنون ويُكافأون، ويتهاون بعضها الآخر في التحقيق فيسيئون وينالون جزاء أفعالهم. فباب الأسد والثّور يُمثّل السلطة العليا، ويصوِّر الحياة في البلاط وما يضطرب فيها من مكايد وسعايات، ثم يُصوِّر الملوك في سياستهم الداخليّة وما يعتورها من نقص في اختيار الأعوان وفي توزيع الأعمال وتصديق الأقوال وما الى ذلك ممّا يقود المُلك الى الانهيار والبلاد الى الهلاك والدّمار؛ وهو يُعالج كلّ داء بأقوال الحكماء كما يعالج بالتمثيل وتقديم الحجج والشواهد. وباب الحمامة المطوّقة يُعالج قضيّة الصداقة ويبرهن أنها ممكنة بين المُتباعدين في الطبيعة كالجُرَذ والحمامة بشرط أن يكون هنالك إخلاص وتضحية. وهكذا سائر الأبواب.

أما اسم الكتاب فهو مستقى من البابين الأول والثاني من أبوابه حيث يدور القصص حول اثنين من بنات آوى اسم الواحد **كليلة** واسم الآخر **دمنة**؛ والبابان هما باب الأسد والثور وباب الفحص عن أمر دمنة.

ب ـ أصل الكتاب ونقله الى العربية: اختلف المؤرّخون والنقّاد مدّة من الزمن في شأن واضع كتاب كليلة ودمنة. فذهب البعض من أمثال محمد كرد علي صاحب «أمراء البيان» الى أن الكتاب من وضع ابن المقفّع نفسه، وتبعه في **هذا الرأي**

طائفة من المؤرخين والنقّاد معتمدين ، في ما ذهبوا إليه ، على أنّ ابن المقفّع قادر أن يقوم بمثل هذا العمل ، وعلى أن في الكتاب روحاً إسلاميّة بيّنة ، وعلى أنه لا يوجد في الهنديّة كتاب باسم كليلة ودمنة ... وذهب البعض الآخر إلى أنّ الكتاب مترجم بشهادة مترجمه نفسه ، ثم بشهادة التاريخ نفسه منذ عهد ابن المقفّع الى يومنا هذا ، ثم بشهادة ما في النُّسَخ القديمة للكتاب من آثار واضحة للترجمة من مثل التعقيد أحياناً ، والتركيب الأعجميّ أحياناً أخرى ، ثم بشهادة الأصول الهنديّة التي عثر عليها العلماء وردّوا إليها أكثر أبواب الكتاب . وهذا الرأي الأخير أصبح اليوم لا يقبل الردّ . فيكون ابن المقفّع مترجماً عن الفارسيّة مع بعض التصرُّف أحياناً مراعاة لمقتضى الحال .

وقد ثبت اليوم أنه من أصل هنديّ تُرجِمَ الى الفارسيّة ونقله ابن المقفّع لما رأى فيه من قيمة اجتماعيّة وسياسيّة ، ولا سيّما في مطلع العهد العبّاسي يوم كان السلاطين ذوي شدّة وبطش ، وأراد بذلك — على ما زعم البعض — أن يقف من أبي جعفر المنصور

موقف بيدبا من دبشليم ملك الهند. وهكذا نقله ابن المقفّع من الفارسيّة كما نقل منها أيضاً عدداً من كتب أرسطو ومن تواريخ الفرس.

والكتاب ينطوي على عالم من المعاني حتى عُدَّ من كنوز الحكمة المشرقيّة. وقد تناول موضوعاتٍ شتّى لا يمكن حصرها في مجال ضيّق كهذا، ولذلك لزمنا جانب التخيُّر فاقتصرنا على **أدب الملوك**، **وأدب الرعيّة**، **وأدب النفس**، **وأدب الصداقة**.

جـ — مضمونه:

١ ـ **أدب الملوك**: لا يخفى أن النظام الملوكي كان شائعاً في العصور القديمة، وأن الملك كان محور البلاد وقاعدة الأمور، وبيده السلطة التشريعيّة، والسلطة القضائيّة، والسلطة التنفيذيّة. وكان صلاح العباد بصلاح الملك؛ ولهذا اهتمّت الفلسفات القديمة ولا سيّما الشرقيّة منها، لتوجيه الناس في اختياره، كما اهتمّت لتوجيه الملك توجيهاً يضمن سلامة البلاد، وهناءة العِباد، ولا عجب من ثمّ في أن نرى كتاب كليلة ودمنة — وهو خلاصة حكمة المشرق — يخصّ الملوك بقسم وافر من تعاليمه.

ورأس صفات الملك أن يكون **حسن السيرة**، ولكي يكون حسن السيرة عليه أن **يملك نفسه أولاً**، **ومتى ملك نفسه استطاع أن يملك العالم**. ولكي يملك نفسه عليه أن **يعرفها حق المعرفة**، ومن ثم فالعلم هو الأساس، والعلم من عمل العقل، **والعقل** أشرف ما في الانسان. ولهذا ترى في الكتاب محلاً رفيعاً للعقل، بل ترى كلّ شيء قائماً على **النزعة العقلية**. جاء في كليلة ودمنة: «لا يفرح عاقل بكثرة ماله، ولا يحزن لقلّته، ولكن الذي ينبغي أن يفرح به عقله وما قدم من صالح عمله[1]». فعلى الملك أن يكون «العالم بالأمور وفرص الأعمال، ومواضع الشدّة واللّين، والغضب والرضى[2]، والعجلة والأناة، والناظر في يومه وغده وعواقب أعماله[3]». وهكذا يستطيع أن يكون حسن السيرة وحسن السياسة، فلا تكون سيرته «سيرة بطر وأشر وفخر وخيلاء وعُجب وضعف رأي[4]».

---

١ ـ باب الجرذ والسنور.

٢ ـ قال المتنبّي:

ووضع الندى في موضع السيف بالعُلى مُضِرٌّ كوَضْعِ السيفِ في موضعِ الندى

٣ ـ باب البوم والغربان. ٤ ـ باب البوم والغربان.

ومتى ملك العاهل نفسه كان **ذا عهد ووفاء**. «قُبحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء، وويل لمن ابتُلي بصحبتهم، فإنهم لا حميم لهم ولا حريم، ولا يحبون أحداً ولا يكرُم عليهم، إلا أن يطمعوا عنده في غناء فيقربوه عند ذلك ويكرموه. فإذا قضوا منه حاجتهم فلا ودّ ولا حفاظ، ولا الإحسان يجزون به، ولا الذّنب يعفون عنه، الذين إنما أمرهم الفخر والرِّئاء والسمعة، الذين كلّ عظيم من الذُّنوب يركبونه، وهو عندهم صغيرٌ حقيرٌ هيّن[1]».

ومتى ملك العاهل نفسه كان **حليماً عاقلاً**، **متأنّياً عند الغضب**[2]، وابتعد عن التجبُّر والظُّلم[3] واتّصف بجميع الصِّفات التي تجعله أهلاً للحكم، وتجعل الحكم في يده طريقاً الى إسعاد الرعية. وهكذا يمكنه أن يسوس الناس ويُعنى بشؤونهم. وعليه عند ذلك أن يجعل عنايته شطرين: **شطراً للداخل**، **وشطراً للخارج**. **فتكون سياسته الداخليَّة سياسة سهَرٍ وفطنة**، وذلك في اختيار الأعوان، وتحصين المملكة بالجند، وتحكيم الاستقامة، ورفع لواء العدل وما الى ذلك. «إنَّ أعظم الأشياء ضرراً على الناس عامَّةً، وعلى الوُلاةِ خاصَّة، أمران: أن يُحرَموا صَالِحَ الأعوان والوزراء والإخوان، وأن يكون وزراؤهم وإخوانهم غيرَ ذوي مروءةٍ ولا غناء[4]». ومن واجبات الملك أن لا يُكرِه أحداً على عمل «لأنّ المُكْرَه لا يستطيع المبالغة في العمل»، وأن يُراعي في إسناد الأعمال الكفاية والميل في من يُسندها إليهم، وأن يتفقّد العُمّال والأعمال بنفسه حتى لا يكون ألعوبةً في أيدي الوُشاة والمفسدين، وأن يستشير لأن المُلْك شورى في نظر ابن المقفّع: «المَلِك المشاورُ المُؤامِر يُصيب في مُؤامرتِهِ ذوي العقول من نصحائه، من الظَّفَر، ما لا يُصيبُهُ بالجنود والزّحف وكثرة العُدَد. فالملك الحازِم يزداد بالمُؤامرة والمشاورة ورأي الوزراء الحزَمَة، كما يزداد البحر بموادِّه من الأنهار[5]». ومن واجبات الملك في سياسته الداخلية أن يُحصِّن أسراره: «يصيب الملوك الظفر بالحزم، والحزم بأصالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار[6]».

---

١ ـ باب الملك والطائر فنزة.
٢ ـ باب ايلاد وايراخت.
٣ ـ مثل القمرة والفيل.
٤ ـ باب الأسد وابن آوى.
٥ ـ باب البوم والغربان.
٦ ـ باب البوم والغربان.

وأما السّياسة الخارجيّة فهي سياسة اللّين والسّلام : «ذو العقل يجعل القتال آخر حِيَله ، ويبدأ بما استطاع من رِفقٍ أو تمحُّل ولا يعجل[1] » و«إذا كان وزير السلطان يأمره بالمحاربة في ما يقدر على بُغْيتِه فيه بالمسالمة فهو أشدّ من عدوّه له ضرراً» . أما السُّفراء بين الدّول فيجب اختيارهم بكلّ اعتناء ، وعلى الرسول أن يكون ذا لينٍ ومؤاتاة «فإنّ الرسول يُلين القلبَ إذا رَفِق ، ويُخشن الصدر إذا خَرِق[2]» .

وإنّه ليضيق بنا المجال لو أردنا تتبّع كتاب «كليلة ودمنة» في موضوع السلطان الذي يستغرق القسم الأكبر من فصوله . وفي ما ذكرنا إشارة الى ما لم نذكر . وإن من يقرأ الكتاب ويتلمّس فيه روح ابن المقفّع يخرج بفكرة واضحة عن **نزعة التشيُّع المتغلغلة فيه** ، وعن **الصّلة الوثيقة ما بين العقل الهندي الإغريقيّ والعقل العربيّ المتشيّع** .

٢ ـ **أدب الرعيّة** : تواجه الرعيّة في الملوك إحدى حالتين : إما حالة عدلٍ واستقامة ، وإما حالة ظلم واستبداد . فعليها في الحالة الأولى أن تعيش في **طاعة وإخلاص** ، وعليها في الثانية أن تضم **صفوفها ولا تتخاذل** حتى تردّ الملك عن غيِّه أو تحطِّم نير عبوديّته . وعليها في كلّ حال أن **تعتصمَ بالصَّبر والأناة ، وأن لا تطمع في صحبة الملوك ، والتقرُّب منهم** ، لأنّ في ذلك تعباً وعبئاً ثقيلاً .

٣ ـ **أدب النفس** : على الإنسان العاقل في هذه الحياة أن يُقدِّمَ العقل في كلّ الأمور ، فهو فوق المال والقوّة ؛ وعليه أن **يضبط نفسه** ولا يؤخِّرَ عمله ، ويكون صادقاً **في قوله** وفي عمله ، ويُصانع ويعتمد **الرِّفْق والمُلايَنَة** في أحوالٍ كثيرة ، ويلزم جانب **الحَذَر** ، **ولا يسترسل الى النِّساء** لأنَّ المرأةَ في نظر واضع الكتاب ، لا تحفظ سرّاً ولا وداً ، **ولا يحقد** لأن «من كان له عقل كان على إماتَةِ الحقد أحرصَ منه على تربيته» .

٤ ـ **أدب الصَّداقة** : الصداقة من ضرورات الحياة ، وهي نوعان : صداقة قائمة على **تبادُلِ ذاتِ النفس** ، وهي المصافاة ، وصداقة قائمة على **تبادل ذات اليد** أي على المساعدة ، وهذه دون الأولى قيمة . **وعلى العاقل أن يُحْسِنَ اختيار الصَّديق المُخْلِص**

---

١ ـ باب الأسد والثور .

٢ ـ باب البوم والغربان .

الذي لا يبخل بالمشورة، وليعلم أنّ «**رأس المودّة الاسترسال**». وليعلم أيضاً أن ثلاثة أشياء تزداد بها الصلة بين الأصدقاء: «**المُؤاكلة**، والزيارة في البيت، ومعرفة **الأهل** والحَشَم»، وأن «ثلاثة لا يلبث ودّهم أن يتصرّم: الخليل الذي لا يلاقي خليله ولا يكاتبه ولا يُراسله».

د – **قيمة كليلة ودمنة من الناحية الفكرية**: «لكليلة ودمنة قيمةٌ كبيرة في عالم الفكر والتاريخ والأدب. فالكتاب **كنز من كنوز الحكمة البشريّة**، وفيه **فلسفة اجتماعيّة أخلاقيّة** واسعة النطاق، وفيه **دروس تشريعيّة** ذات قيمة، وفيه **نظرات ماورائيّة** جليلة وإن مُوجزَة، وفيه على كلّ حال **عِلْم وعَمَل**، وعلم موجّه الى العمل ومن ثمّ يتّضح لنا أن فلسفة الكتاب هي **فلسفة الحياة العمليّة الشريفة**، هي فلسفة **موضوعيّة مثاليّة**، ذات **نزعة تشاؤمية** يحوم عليها قَدَرٌ غلّاب لا يُقهَر. وفلسفة كليلة ودمنة **موسومة بسمة المذهب العقليّ** الذي يجعل العقل مديراً وموجّهاً لكلّ حركة. وهكذا كانت تلك الفلسفة مزيجاً من أفلاطونية وأرسطوطالية وهندية شرقيّة. ونحن نلمس في الكتاب **انفلاتات صوفية زهدية** وهي من نزعات الفلسفة الهندية.

أما **النزعة الأفلاطونية** في كليلة ودمنة فظاهرة في المثالية، وظاهرة خصوصاً في التنظيم الاجتماعي حيث يسود العدل، وحيث يسوس الناس جماعةٌ من أهل العقل والحكمة والمعرفة. والفضيلة عند أفلاطون وفي كليلة ودمنة ذات صلة وثيقة بالعلم. وأما **النزعة الأرسطوطالية** فظاهرة في إخضاع كلّ شيء للعقل، وفي تسيير الكلام على سنّة التقسيم المنطقي؛ والعقل عند أرسطو أشرف ما في الإنسان، والميزة الخاصة التي تجعل الإنسان إنساناً وترفعه فوق جميع الموجودات الحسية، وهو من ثم قائد جميع القوى، وجميع أعمال الجسد خاضعة له. وأما **النزعة الهندية الشرقية** فظاهرة في التشاؤم الذي يحوم فوق كلّ كلام. وذلك أنّ الحياة، في نظر الفلسفة الهندية، عبودية، وكلّ شيء في هذا الوجود ترّهات وأباطيل، ومن ثمّ دعت الفلسفة الهندية الى الصُّدوف عن خيرات العالم وراحت تبحث عن طريق الإنقاذ والخلاص، فقالت بالسيطرة على النفس التي تنتهي بالسيطرة على العالم، ودعت من ثمّ الى التقشّف والزهد، بل جعلت التقشّف من مبادئها الأولى، ورمت به الى السيطرة على مجموع مظاهر النشاط الحيوي

الجاحظ

(١٥٩ — ٢٥٥هـ / ٧٧٥ — ٨٦٨م)

أ ـ تاريخه :

١ ـ وُلد الجاحظ في البصرة. أكبَّ على طلب العلم في الكتاتيب ودور الورّاقين ومجالس العلماء، وتردّد على المِربد.

٢ ـ قصد بغداد واحتكَّ بأئمة العلم والأدب من مثل الأصمعيّ والأخفش وغيرهما؛ وقد اعتنق مذهب المعتزلة.

٣ ـ وضع كتبه الأولى باسم ابن المقفّع وسهل بن هارون لرواج أسلوبهما. وقد جعله المأمون على ديوان رسائله إلا أنه لم يلبث فيه إلا ثلاثة أيام.

ب ـ شخصيّته :

١ ـ كان الجاحظ رجل علم وثقافة واسعة كما كان رجلَ عمل وانفتاح وطموح.

٢ ـ وكان الى ذلك رجل ظرف وفكاهة وسخرية كما كان رجل اعتماد على النفس.

ج ـ أدبه :

١ ـ كتب الجاحظ في كل موضوع : فلسفة، اجتماع، علم، تاريخ، جغرافية، دين.

٢ ـ كانت مؤلفاته موسوعة جمعت الثقافات القديمة وثقافات العهد العباسي.

٣ ـ من أشهر كتبه : الحيوان والبخلاء والبيان والتبيين.

أ ـ الحيوان :

١ ـ هو كتاب علم وتاريخ وأدب كان الأول من نوعه عند العرب.

٢ ـ مصادره : كتاب «الحيوان» لأرسطو، وأشعار العرب، وكتب علماء العرب في الحيوان، ثم خبرة الجاحظ وتجاربه العلمية.

٣ ـ هو موسوعة واسعة وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي في تشعّب أغراضها.

٤ ـ قيمته

ـ هو علم في لباس أدب، أو هو أدب موضوعه العلم.

ـ أسلوبه أسلوب علمي أدبيّ. فيه من العلم تحرٍّ، واختبار، وشكّ، ومقارنة، وتحكيم العقل... وفيه من الأدب قصص، واستطراد، وجدّ وهزل، وتشويق؛ وفيه نزعة جاحظية : خفة روح، واقعية، دقة، تخير ألفاظ، عبارة حية، متوثبة، قصيرة...

ب ـ البخلاء :

١ ـ وضعه الجاحظ طلباً للمنفعة العامة.

٢ ـ كان الكتاب خلاصة خبرة صاحبه، ومجموعة معلوماته، وصورة لناحية البخل والاقتصاد في مجتمعه.

٣ ـ انتهج فيه سبيل القصص والفكاهة والتهكّم.

٤ ـ قيمته :

ـ دراسة عميقة لنفسية البخلاء.

ـ أقوال للبخلاء حافلة بالمعارف الطبية والاجتماعية والسيكولوجية والاقتصادية.

ـ مقدرة عجيبة : تغلغل بين طوايا النفس البشرية، جمع بين النظر والتطبيق.

ـ روح مرحة، فكهة، حوار مسرحيّ...

جـ ـ البيان والتبيين :

١ ـ هو كتاب أدب وضعه الجاحظ في أواخر أيامه لتنشئة الكتّاب على الأساليب القويمة.

٢ ـ عالج فيه الجاحظ موضوع الخطابة وعيوب الخطيب، ثم عالج أنواع الدلالات، ثم ردّ على الشعوبية، وأسهب في الكلام على البلاغة...

٣ ـ قيمته :

ـ يعدّ أولى المحاولات للتصنيف في علوم البلاغة.

ـ وهو مصدر من مصادر تاريخ الأدب العربي.

ـ فيه نظرات قيّمة في النقد.

د ـ رسالة التربيع والتدوير :

الجاحظ فيها رجل نقاش كلاميّ، ومقدرة على تصريف اللغة في ما يريد تصريفاً عجيباً.

٤ ـ منزلة الجاحظ وخصائصه العامّة :

هو دائرة واسعة للمعارف، وأديب جعل العلم مادّة لأدبه، يُعنى بألفاظه ومعانيه، ويتطلّب الحقيقة بكل قواه، ويراعي أبداً مقتضى الحال، ويمزج الجدّ بالهزل، ويحسن تصيّد الألفاظ.

أ ـ تاريخه :

١ ـ **مولده وتحصيله الثقافيّ** : وُلد الجاحظ سنة ٧٧٥م، وقد اختلف المؤرّخون في أصله. واسمُه عمرو بن بحر، وكنيتُه أبو عثمان؛ أمّا لقبُه الجاحظ فقد غلب عليه لجُحوظ عينَيْه.

طلب مبادئ العلم في أحد كتاتيب البصرة مع أولاد القصّابين وأبناء الضّعة والمسكَنة. ورُؤِيَ يبيع الخبزَ والسَّمك بسيحان، وهو نهر بالبصرة. ثم أخذ يتردّد على

المسجد والمِرْبَد ؛ وفي المسجد حلقات العلماء يُوزّعون كلمة العِلْم على طُلّابه ، وفي المِرْبَد ، وهو محلّة عظيمة من محالّ البصرة ، كانت فيها مفاخرات الشّعراء ومجالس الخُطباء. وكان الجاحظ فتى الرغبة العِلْمِيَّة المُلِحَّة ، يستقي المعرفة من شتّى ينابيعها ، ويُضيف إلى ذلك كلّه اكتراءً لحوانيت الورّاقين يسجن فيها نفسه للمطالعة والتحصيل ، وجمعاً للكتب والأوراق في غير حساب ، معتمداً في نفقته على أمٍّ ترمَّلَت وضاقت بها سُبُل العيش ، وقد آلمها انصراف ابنها الى العلم دون العمل.

٢ ـ **في عالم الأئمّة** : وقَصَدَ بغداد للتزيُّدِ منَ العِلْمِ ، وكانت بغداد في عهدَي الرّشيد وابنه المأمون في أوج الازدهار الاقتصاديّ والثقافيّ ، وقد احْتشد فيها العلماء كما احتشدوا في البصرة والكوفة ، واشتدّ فيها النزاع بين المِلَل والنِّحَل ، ولا سيّما في عهد المأمون الذي انحرف الى المعتزلة وأطلق حريّة النقاش الفلسفيّ والعلميّ والدينيّ. والجدير بالذكر أنّ الجاحظ احتكّ بعدد كبير من العلماء وأخذ عنهم وناقشهم ، كالأصمعيّ شيخ اللغة والأخبار والنّوادر ، وأبي زيد الأنصاري إمام الأدب واللغة ، والأخفش سيّد أهل النحو.

وكان الجاحظ ميّالاً ، منذ حداثته ، الى تحكيم العقل ، فعندما بلغ اعتنق مذهب المعتزلة أصحاب الرّأي ، وكان لأبي إسحق ابراهيم بن سيّار النظّام شيخ المعتزلة أثرٌ كبير في هذا التوجيه ، تتلمذ له الجاحظ وترك لنا فيه أجمل الأقوال.

والجدير بالذكر أنَّ للنّظّام مذهباً عقليّاً في التفسير ، وقد نبّه على خلط المفسّرين والرُّواة وهاجمهم في عنف لأنهم يُفسدون المعاني والأقوال ، ورأى في الشكّ طريقاً الى اليقين ، وآثر البحث والتحرّي على الانقياد والتقليد. وهكذا فعل الجاحظ ، فكان رجل العلم والفلسفة والفقه والأدب ؛ كما كان الرجلَ الموسوعيّ الذي جمع في صدره ثقافة العرب واليونان والفُرس وغيرهم.

٣ ـ **أمير الكتابة** : وعندما ذاع صيت الجاحظ بين الخاصّ والعامّ ، وأنشأ فرقة معتزليّة باسم الجاحظيّة ، استدعاه المأمون وصدّره في ديوان الرسائل ، ولكنّه استعفى

عقب ثلاثة أيّام. وكان سهل بن هارون يقول: «إن ثبت الجاحظ في هذا الدّيوان أفَلَ نجمُ الكُتّاب.»

وكان الجاحظ قد أخذ في الكتابة والتصنيف، ونسب كتبه الأولى الى ابن المقفّع وسهل بن هارون تحفّظاً، ولما رأى رواجها وتذوُّقَ الناس لها راح يُعلن اسمه ويُصدّر به مؤلّفاته. وقد أصبح الجاحظ في عهد المعتصم رَجُل السّاعة، وأمير الكتابة. وكان صديقاً للوزير ابن الزيّات يَنْحاز له وينالُ جوائزه، وقد اتّسعت حاله ولَها ما اسْتطاع اللّهو.

في هذه المرحلة قام الجاحظ بعِدّةِ أسفارٍ زار خلالها دمشق وأنطاكية ومصر. ولمّا كانت سنة ٨٤٧ فتك المتوكّل بابن الزيّات، وأحلَّ محلّه أحمد بن أبي دؤاد، وكان بين الرجلين منافسة، وكان الجاحظ من حزب ابن الزيّات، فهرب، ثم لم يلبث أن قُبِضَ عليه.

٤ ـ **الأفول الحزين**: وفي هذه المرحلة أُصيب الجاحظ بفَالجٍ، وكان قد بلغَ ما يقارب الخامسة والسبعين من العمر. وكان سلطان الأتراك قد بلغ أقصاه فاستبدّوا بأموال الخلافة وإدارتها وجيشها، ولم يستطع المتوكّل أن يضعف شوكتَهم. وفي تلك الأثناء استدعى الخليفة الفتح بن خاقان، وهو من أصل تركي، واستوزره، وكانت له مع الجاحظ مراسلات ذكر في إحداها أن أبا عثمان كان يتقاضى من الخليفة مشاهرات. ولهذا الوزير قدّم الجاحظ كتاب «مناقب الترك وعامّة جُند الخلافة». وقد رُؤيَ في سُرّ من رأى وهو في الثمانين من العمر، وفي سنة ٨٦١ كان في البصرة، وكان قد أُصيب أيضاً بداء النّقرس[1]. وكان أبو عثمان، في هذه المرحلة كلّها، مُنْشَغِلاً بآلامه، وكان الناس منشغلين به. وظلّ كذلك الى أن وقعت عليه مجلّداته المصفوفة، وهو عليل، فقتلته. وكان موته بالبصرة سنة ٨٦٨م / ٢٥٥ هـ.

وهكذا كانت حياة الجاحظ من كتاب الى كتاب الى أن دُفِنَ تحت الكتب.

---

١ ـ النقرس: ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ولا سيما الإبهام منها.

٢ ـ شخصيّته :

١ ـ قال أبو القاسم البَلْخيّ : «**كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ** بحيث شاع ذكرُه ، وعلا قدرُه ، واستغنى عن الوصف[١] .»

٢ ـ وكان **رَجُلَ العِلْمِ والعَمَل** . حدّث أبو هفّان قال : «لم أرَ قطّ ولا سمعتُ مَن أَحَبَّ الكُتُبَ والعلومَ أكثرَ مِنَ الجاحظ ، فإنّه لمْ يقَعْ بيده كتاب قطّ إلّا استوفى قراءتَهُ كائناً ما كان ، حتّى إنّه كان يكتري دكاكينَ الورّاقين ويبيتُ فيها للنّظر[٢] .». وقال المرزُباني : «كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظّام ، وكانَ واسعَ العلم بالكلام ، كثيرَ التّبَحّرِ فيه ، شديدَ الضّبْطِ لحدودِه ، ومن أعلمِ النّاسِ بهِ وبغيرِه من علوم الدينِ والدّنيا[٣] .» وقال ثابت بن قُرّة : «جَمَعَ (الجاحظ) بينَ اللسانِ والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأي والأدب ، وبين النثر والنّظم ، وبين الذّكاء والفهم ... لقد أُوتِيَ الحِكْمَةَ وفصل الخِطاب[٤] .»

وكانت **ثقافته موسوعيّة** تتناول كلّ فنٍّ وكلّ مطلب ، وقلّما تجد فرعاً من فروع المعرفة لم يجر فيه لسانه وقلمه . وهكذا فقد جمع ما بين علم الأقدمين وعلم المحدثين.

وكان الجاحظ **رجل انفتاح** ، «**نزّاعاً الى التجديد** فهو لا يرى بأساً بأن يَدْخُلَ العربيّة عنصر من عناصر آداب الأمم المعروفة في عصره ، المشهورة بالعلم والحِكَم والأخلاق والآداب[٥] .»

٣ ـ وكان **رجل الطّموح** الذي أراد أن ينافس أكابر الكتّاب والمفكّرين ، وأن يعالج كلّ موضوع وضدّه ، وأن يُنشئ في الاعتزال فرقةً عرفت بالجاحظيّة ؛ وعندما استعفى من رئاسة الديوان عند المأمون أعلن للملإ أنه أراد أن يكون آمراً لا مأموراً ، وحُرّاً غير مقيَّد ، وقد قال في كتاب الحيوان : «وليسَ شيءٌ ألذّ ولا أسرُّ من عِزِّ الأمْرِ

١ ـ ياقوت : معجم الأدباء ١٦ ص ٧٤.
٢ ـ ياقوت : معجم الأدباء ١٦ ص ٧٥.
٣ ـ ياقوت : معجم الأدباء ١٦ ص ٧٥ ـ ٧٦.
٤ ـ ياقوت : معجم الأدباء ١٦ ص ٩٧ ـ ٩٨.
٥ ـ شفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والأدب ، ص ٧٣.

والنهي ، ومن الظَّفَر بالأعداء ، ومن عَقْد المِنَن في أعناق الرّجال ، والسرور بالرئاسة وثمرة السيادة[١] . »

٤ ــ وهو **رجُل جدٍّ وهزل وسخرية** ينظر الى الحياة نظرة واقع ، فيعالجها بالجدّ طوراً ، وبالهزل أخرى. قال ثابت بن قرّة : « الجاحظ شيخ المتكلّمين... إن تكلّمَ حكى سَحْبانَ في البلاغة ، وان ناظَرَ ضارَعَ النظّام في الجِدال ، وإنْ جدَّ خرجَ في مِسْكِ عامر ابن عبد قَيْس ، وإن هزَلَ زادَ على مَزْيدٍ حَبيبِ القلوبِ ومِزاجِ الأرواح... الخُلفاء تعرفه ، والأمراء تُصافيهِ وتُنادِمُه[٢] . »

٥ ــ وهو **رجُل اعتماد على النفس** يصدف عن كلّ عمل فيه مَلَقٌ وتزلّف ومذلّة ، ويميل الى كلّ عملٍ فيه **نحرٌ واعتماد على العقل**. قال الجاحظ : « إذا سَمِعْتَ الرّجُلَ يقول : ما تَرَكَ الأوّلُ للآخِرِ شَيْئاً. فَاعْلَمْ أنّهُ ما يُريدُ أن يُفْلِحَ[٣] . »

٣ ــ أدبه :

أراد الجاحظ أن يُنافِسَ رجال العلم والتّصنيف في عصره ولا سيّما **أبو عُبيدة مَعْمَر ابن المُثَنّى البصريّ** الذي وضع نحو متَي مُصنّف ، والذي قال فيه الجاحظ: « لم يكن في الأرض خارجيّ ولا جَمَاعيّ أعلم بجميع العلم منه » ؛ **وأبو الحسن عليّ بن محمّد المدائنيّ** الذي وضع أكثر من متَي مصنّف ؛ **وهشام بن محمّد الكَلْبِيّ الكوفيّ** الذي وضع نحو مئة وتسعة وثلاثين مؤلّفاً.

وقد ذُكر للجاحظ نحو ثلاث مئة وستّينَ مصنّفاً في شتّى فروع المعرفة حتى قال فيه المسعوديّ : « ولا يُعلَمُ أحدٌ من الرّواة وأهلِ العلم أكثرَ كُتُباً منه » . وقد لا يخلو هذا من مغالاة ، وقد تكون مؤلفات الجاحظ **نحو مئة وسبعين كتاباً** . ومهما يكن من أمر فأبو عثمان بَحْرٌ لا يوقف على ساحله ، ولكنّ الأيام قد عبثت بتلك الآثار فلم يصل إلينا منها إلا القليل **ككتاب الحيوان ، وكتاب البيان والتّبيين ، وكتاب البخلاء ، ورسالة التربيع والتدوير**.

١ ــ كتاب الحيوان ٢ ص ٩٨.

٢ ــ ياقوت : معجم الأدباء ١٦ ص ٩٨.

٣ ــ ياقوت : معجم الأدباء ١٦ ص ٧٨.

أبو الفَرَج الأصفهَانيّ - ابن قُتَيْبَة - المـــبرَّد
الصُّولي - الثَّعـالبيّ

أ ـ أبو الفرج الأصفهاني :

١ ـ تاريخه : وُلد بأصبهان سنة ٢٨٤ هـ ونشأ ببغداد مكبّاً على العلم حتى أصبح خزانة معارف. . اتصل بالخلفاء والأمراء والوزراء ، وقدّم كتابه «الأغاني» لسيف الدولة . توفي سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٧م .

٢ ـ أدبه : للأصبهاني كتاب «الأغاني» وهو موسوعة أدبيّة وتاريخية ، ومصدر هامٌّ من مصادر الأدب والتاريخ ، وهو أجمع كتاب للأدب العربيّ ، وأسلوبه شديد الروعة ينطلق انطلاق حياة وواقعيّة .

ب ـ ابن قتيبة :

وُلد في بغداد سنة ٢٦٣ هـ وسكن الكوفة وكان إماماً من أَئِمَّةِ الأدب . من آثاره «أدب الكاتب» و«الشعر والشعراء» .

جـ ـ المبرِّد :

وُلد في البصرة سنة ٢١١هـ/ ٨٢٦م. وتوفّي في بغداد. أشهر آثاره كتاب «الكامل» .

د ـ الصُّولي :

نادم ثلاثة من خلفاء بني العبّاس وكان من أكابر علماء الأدب. توفّي في البصرة سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م. من آثاره «أدب الكتّاب» و«أخبار أبي تمّام» .

هـ ـ الثعالبيّ :

وُلد في نيسابور سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م . كان في عصره من أئمَّةِ اللغة والأدب والتاريخ. أشهر مؤلّفاته «يتيمة الدّهر في شعراء أهل العصر» .

أ ـ أبو الفرج الأصفهاني (٢٨٤ ـ ٣٥٦هـ / ٨٩٧ ـ ٩٦٧م)

أ ـ تاريخه :

وُلد أبو الفرج بأصبهان ونشأ ببغداد في عصر النُّضوج العلميّ ، فحذق العربيَّة وحصَّل العلوم الواسعة وحفظ الكثير من فنون الأدب واللغة ، ووعى من الأشعار والأغاني والآثار ما لا حدّ له ، وأكبَّ على العلوم بمختلف فروعها ينهل من ينابيعها ، حتى أصبح خزانة علم ودائرة معارف. قال القاضي التنوخيّ وهو أحد معاصري الأصبهانيّ : «ومن الرواة المتشيّعين الذين شاهدناهم أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهانيّ ، فإنه كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المُسْنَدة والنِّسَب ما لم أرَ قطُّ من يحفظ مثله ، وكان شديد الاختصاص بهذه الأشياء ، ويحفظ دون ما يحفظ منها علوماً أخرى ، منها : اللغة ، والنّحو ، والخرافات ، والسِّير ، والمغازي ، ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً ، مثل علم الجَوارِح والبَيْطَرَة ، ونُتَف من الطبّ والأشربة وغير ذلك» . ولما نَبُهَ ذكره اتَّصل بالخلفاء والأمراء والوزراء ، فكان نديماً لمعزِّ الدولة ، كما انقطع الى الوزير المهلَّبي.

وكان شأن أبي الفرج الأصبهانيّ ، على علوِّ مرتبته العلميَّة ، شأن أكثر الشعراء والأدباء في معاقرة الخمر والعبث ووصف النساء. وقد تُوفّي نحو سنة ٣٥٦ هـ بعد حياة مليئة بجليل الآثار.

ب ـ أدبه :

لأبي الفرج الأصبهاني مؤلفات كثيرة ذكر منها المؤرخون نحو ثمانية عشر مؤلفاً أشهرها كتاب «الأغاني» .

١ ـ **طبعات كتاب الأغاني** : هو أشهر الكتب الموضوعة في أخبار الشعراء والمغنّين والأدباء. طبع في مصر في عشرين مجلّداً وقام المستشرق رودولف برونو بطبع المجلّد

الحادي والعشرين منه في ليدن عام ١٣٠٥ هـ. وفي سنة ١٨٩٥ وضع له المستشرق الإيطالي غويدي فهرساً أبجديّاً عامّاً. وفي السنوات الأخيرة اهتمّت دار الكتب المصريّة للكتاب فطبعته طبعة أنيقة، وأكبّت عدّة دور نشر في لبنان على طبعه. منها: دار الثقافة التي أخرجته في ٢٥ مجلداً وضمّنت المجلَّدَين الأخيرَين منه (٢٤ و٢٥) فهارس في شتى محتوياته.

٢ ـ **مضمونه**: صدّر المؤلّف كتابه بمئة صوت كان هارون الرشيد قد أمرَ مغنّيه ابراهيم المَوْصِليّ وبعض مشاهير المُغنّين أن يختاروها له، فعوّل الأصبهانيّ عليها وعلى ما اختاره إسحاق بن إبراهيم للواثق، وما اختاره غيره من أهل العلم بصناعة الغناء. وأهمّيّة الكتاب قائمة على ما حَواه من **أخبار وأشعار** «لأنّ المؤلّف — على حدّ قول جرجي زيدان — إذا ذكر أبياتاً على لحن وعيَّنَ نغمَها ومن غنّاها، استطرد الى ذكر ناظمها وترجمته، والأحوال التي قيلت فيها من حرب أو حبّ في الجاهليّة أو الإسلام، ومن غنّاها ومن شهد ذلك وأسبابه وأحواله، فوردُ تفاصيل ذلك بالدقّة والإسناد. فاحتوى الكتاب على أخبار مئات من الشعراء والأدباء والمغنّين والعشّاق والخلفاء والقوّاد، وأكثر أيام العرب وأخبار قبائلهم وأنسابهم ووقائعهم وغزواتهم ومياههم، وفيه خبر أشعار الجاهليّة والإسلام ولا سيما ما كانوا يغنُّون به، وآداب القوم في طعامهم وشرابهم واجتماعهم وحروبهم وزواجهم وطلاقهم وسائر أحوالهم». وهكذا **فالكتاب موسوعة أدبيّة وتاريخيّة ومصدر هام من مصادر الأدب والتاريخ**.

والذي يُرْوَى أنّ الأصبهانيّ جمع كتابه في خمسين سنة، وحمله الى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار واعْتَذَر إليه، وحُكي عن الصاحبِ بن عبّاد أنه كان في أسفاره وتنقُّلاته يستصحب ثلاثين جملاً تحملُ له الكتب، فلمّا وصل إليه كتاب الأغاني استغنى به عنها، ومما يروى أيضاً أنّ الصّاحب بن عبّاد قال عندما عرف بالمكافأة التي قابل بها سيف الدولة كتاب الأغاني: «لقد قصَّر سيف الدولة وإنّه لَيَسْتحِقّ أضعافها إذ كان مشحوناً بالمحاسن المنتخبة، والفِقَرِ الغريبة، **فهو للزّاهد فُكاهة، وللعالِم مادّة وزيادة، وللكاتبِ والمتأدّب بِضَاعة وتجارة، وللبطَلِ رِحْلة وشجاعة، وللمُتظرّف رياضة وصِناعة، وللملك طيبة ولذاذة**».

٣ ـ قيمة كتاب الأغاني :

١ ـ **قيمته التاريخيّة** : لقد كان كتاب الأغاني ولا يزال **مرجعاً هامّاً من مراجع التاريخ. فقد صوّر وتتبّع حركة الغناء والموسيقى** في صدر الإسلام وفي العهدين الأمويّ والعباسيّ ، وترجم لأكثر المغنّين المعروفين في تلك المدّة ، وجمع الأغاني العربيّة قديمَها وحديثَها ، «وانفرد بذكر الغناء العربي وقواعده وآلات الطرب والموسيقى التي كانت مستعملة وشائعة في أزهى العصور الإسلاميّة». ومما ذُكِر من هذا القبيل صفات المغني قال — والكلام على لسان ابن سريج — «المصيبُ المحسنُ من المغنّين هو الذي يُشبع الألحان ، ويملأ الأنفاس ، ويعدّل الأوزان ، ويُفَخِّمُ الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويُقيم الإعراب ، ويستوفي النغم الطوال ، ويحسن مقاطيع النغم القصار ، ويصيب أجناس الإيقاع ، ويختلس مواقع النبرات ، ويستوفي ما يشاكلها في الضرب من النقرات».

وصوّر لنا كتاب الأغاني **ميل بعض خلفاء بني أميّة وبني العبّاس إلى التّرف والغِناء** حتى كان مثلاً الوليد بن يزيد «يلبس منه — أي من الجوهر — العقود ويغيرها في اليوم مراراً كما تُغيَّر الثياب شغفاً ، فكان يجمعه من كلّ وجه ويغالي به» ؛ وحتى كان مثلاً يزيد بن عبد الملك شديد التأثّر بالغناء ؛ ومما جاء عنه في الأغاني أنه سمع مَعْبداً يُغنّي فصاح : «أحسنت والله يا مولاي ! أَعِدْ فداك أبي وأمي ، فردَّ مثلَ قوله الأول ، فأعاد ، ثم قال : أعدْ فداك أبي وأمّي ، فاستخفَّه الطَّرَب حتى وثب وقال لِجَوارِيه : افعَلْنَ كما أفعلُ ، وجعلَ يدور في الدّار ويدُرْنَ معه وهو يقول :

يَــا دارُ دَوِّريني ، يَا قَرْقَرُ امْسِكِيني
آلَيْتُ مُنْذُ حينِ حَــقّـاً لَــتَصْرِمِيني
وَلَا تُـواصِــلِــيني بِــاللهِ فَــارْحَـمِـيني
لَمْ تَذْكُري يَميني !

قال : فلم يزل يدُورُ كما يدورُ الصِّبيانُ ويَدُرْنَ معه حتى خرَّ مغشيّاً عليه ووقَعْنَ فوقه

ما يعقل ولا يعقلن ، فابتدره الخدم فأقاموه وأقاموا مَنْ كان على ظهره من جواريه وحملوه وقد جاءت نفسه أو كادت[١] .

ووصف كتاب الأغاني **القصور وما فيها** من رياش وحلى ، ومن ملابس فاخرة ، وألوان زاهية ، ومن جوارٍ وقيان ، ووصف البساتين ومجالس الشراب ومصايد الطير والسمك وما إلى ذلك.

ووصف **المواكب والاحتفالات** ومن ذلك ما جاء في وصف موكب المتوكّل بُسرَّ من رأى قال : «لما عَقدَ المتوكّلُ لولاةِ العُهود من ولده ركب بِسرَّ من رأى ركبةً لم يُرَ أحسنُ منها ، وركب ولاة العهود بين يديه ، والأتراك بين أيديهم أولادهم يمشون بين يدي المتوكّل بمناطق الذهب ، في أيديهم الطَّبَرزِينَات[٢] المُحلَّاة بالذهب ، ثم نزل في الماء فجلس فيه والجيش معه في الجَوانِحيّات[٣] وسائر السفن ، وجاء حتى نزل في القصر الذي يُقال له «العَرُوس» ، وأَذِنَ للناسِ فدخلوا إليه ، فلما تكاملوا بين يديه ، مَثَلَ إبراهيم بن العبَّاس بين الصّفّين ، فاستأذن له ، فقال :

وَلَمَّا بَدَا جَعْفَرٌ في ٱلْخَميـ ـسِ بَيْنَ المُطلّ[٤] وبَيْنَ العُرُوسِ
بَـدا لَابِسـاً بِـهِا حُـلَّـةً أُزِيلَتْ بِهَا طَالِعاتُ النُّحوسِ
وَلَـمَّـا بَـدَا بَيْـنَ أَحْبابِـهِ وُلاةِ العُـهُـودِ وَعزّ النُّفُوسِ
غَـدَا قَـمَراً بَيْـنَ أَقْـمَـارِهِ وَشَمْسـاً مُـكَلَّـلَةً بالشُّمُوسِ
لإِيـقَـادِ نَـارٍ وَإِطْـفَـائِـهَا وَيَـوْمٍ أَنِيقٍ وَيَومٍ عَبُوسِ

ثم أقبل على وُلاة العهود فقال :

أَضْحَتْ عُرَى الإِسْلامِ وَهْيَ مَنُوطَةٌ بـالـنَّـصْـرِ وَٱلإعْـزَازِ وَٱلتَّأْييـدِ
بِخَليـفَـةٍ مِـنْ هَـاشِمٍ وَثَلاثَةٍ كَنَفُوا الخِلافَةَ مِنْ وُلاةِ عُهُودِ

---

١ ـ الأغاني ج ١ ص ٦٨ — ٦٩ (مطبعة دار الكتب المصرية).
٢ ـ الطبرزين : آلة من السلاح تشبه الطبر (الفأس).
٣ ـ الجوانحيات : نوع من السفن.
٤ ـ المطل : اسم مكان أو قصر، كما هو ظاهر من السياق.

قَــمــرٌ تَوَافَتْ حَوْلَـهُ أقمارُهُ فَـحَفَفْنَ مَطْلَعَ سَعْدِهِ بِسُعُودِ
رَفَعَتْـهُـمُ الأيّامُ وارْتَفَعُوا بِهِ فَسَعَوْا بِأَكْرَمِ أنفُسٍ وَجُدودِ

فأمر له المتوكّلُ بمائة ألف درهم، وأمر له وُلاةُ العهود بمثلها»[١].

وهكذا كان الكتاب من الوجهة التاريخيّة منهلاً ثرّاً وينبوعاً فيّاضاً وإن كاد صاحبه يقتصر في وصفه على ناحية اللهو والعبث من الحياة. والذي يزيد في قيمة الكتاب من هذه الناحية أنّ صاحبه كان **شديد التّدقيق في التحقيق وتحرّي الصواب.**

٢ – **قيمته النقديّة والأدبيّة**: ومما لا ريب فيه أنّ **كتاب الأغاني من أهمّ مراجع تاريخ الأدب** وقد ترْجَمَ مؤلّفُهُ لأكثر الشعراء الأقدمين، **وهو أجمع كتاب للأدب العربي**، ولولاه لضاع معظمُ الشعر العربي. وقد اهتمّ أبو الفرج للنقد الأدبي التاريخيّ اهتماماً خاصاً، فتراه يحاول **التتبّع والتحرّي** في عناية وإخلاص، فلا يكتفي بالإسنادِ الى الرّواة، بل ينتقد ويبيّن أوجه الخطأ أو التناقض بين الروايات، ومن ذلك أنه أورد الأبيات التالية لداود بن سلم، وهو من مُخَضْرَمي الدّولتين الأموية والعباسية، ثم علّق عليها على الأسلوب التالي:

قُلْ لِأَسْماءَ أَنْجِزي الـمِـيعَادَا وانْـظُري أَنْ تُـزَوِّدي مِنْكِ زَادَا
إنْ تَكُوني حَلَلْتِ رَبْعاً مِنَ الشّا مِ وَجَاوَرْتِ حِمْيَراً أَوْ مُرادا
أَوْ تَناءَتْ بِكِ النَّوَى فلقد قُدْ تِ فُؤادِي لِحَيْنِهِ فَـانْـقَادَا
ذَاكَ أَنّي عَلِقْتُ مِنْكِ جَوى الحُـ بِّ وَلِيداً فَزِدْتُ سِنّاً فَزَادَا

ثم قال: «وقد كنّا وجدنا هذا الشعر في روايةِ علي بن يحيى عن إسحق منسوباً الى المُرقّش، وطلبناه في أشعارِ المرقّشين[٢] جميعاً فلم نجده، وكنّا نظنّه من شاذِّ الرّوايات حتى وقع إلينا في شعرِ داود بن سلم، وفي خبرٍ أنا ذاكرُه في أخبار داود. وإنما نذكر ما

١ – الأغاني ج ١٠ ص ٦٤ (طبعة دار الكتب المصرية).
٢ – يعني بالمرقّشين، المرقش الأكبر والأصغر. والأكبر هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن بكر بن وائل. والمرقش الأصغر هو ربيعة بن حرملة، وهو ابن أخي المرقش الأكبر، وهو أيضاً عم طرفة بن العبد.

وقع إلينا عن رُواته ؛ فما وقع من غلط فوجَدْناه أو وقفنا على صحَّتِه أثبتناه ، وأبطَلْنا ما فرط منّا غَيرَهُ ، وما لم يَجْرِ هذا المجرى فلا ينبغي لقارئ هذا الكتاب أن يُلزِمنا لومَ خطإٍ لم نتعمّده ولا اخترعناه ، وإنما حَكَيْناه عن رواته ، واجتهدنا في الإصابة ، وإن عرف صواباً مخالفاً لما ذكرناه وأصلحه ، فإن ذلك لا يضرّه ، ولا يخلو به من فَضْلٍ وذكرٍ جميل إن شاء الله »[1] .

٣ – قيمته الفنّيّة : لكتاب الأغاني قيمة فنيّة كبرى وقد **حفل بالنوادر والفكاهات والأقاصيص التاريخية المليئة بالحياة ، في أسلوب شديد الروعة ، يتوثّب انطلاقاً ، ويتقلّب مع نبضات الحياة ، خفيفاً ، سريعاً ، شديد التلوّن ، شديد الواقعيّة ، شديد المراعاة لمقتضى الحال ، ينطق بلسان كلّ إنسان ، في نزعاته المختلفة ، وعقليته الخاصة ، ولهجته الخاصّة** .

ولأبي الفرج مقدرةٌ عجيبة في **خلق اللون المحلّي وفي تمثيل الأحداث ، وإظهار نفسيّة الأشخاص ، وفي إيراد الأحاديث نابضة بالحيوية ، والحوار خافقاً بالحركة ، وله مقدرة عجيبة في إقحام الجمل المعترضة في الكلام** ، وإذا هي ظرف وتنويع وإحياء للمشاهد ، وله مقدرة عجيبة في **تركيب الكلام الوجيز ، وفي الحذف والذكر ، والتقديم والتأخير** ، وما الى ذلك مما يجعل عباراته **أشخاصاً طروبة لعوبة** ، تزخر بالمعاني والأحداث والتمثيل .

هذا شيء وجيز عن كتاب الأغاني الذي يعدّ بحقّ **موسوعة في الأدب والتاريخ** ، وكنزاً ضخماً من كنوز المعرفة وبستاناً رائعاً من بساتين الظرف والحياة المشرقة .

ب – ابن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦هـ / ٨٢٨ — ٨٨٩م)

هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفيّ الملقّب بالدِّينَوَرِيّ نسبة الى دينَوَر التي وَلِي قضاءها . وُلِد في بغداد وسكن الكوفة وكان إماماً من أئمة الأدب ، وفقيهاً ومحدِّثاً

---

١ – راجع الأغاني ج ٦ ص ٩ (طبعة دار الكتب المصرية) وج ٦ ص ١٠ من طبعة دار الثقافة .

ومؤرّخاً. قصد البصرة واتصل بالجاحظ ثم انتقل الى بغداد وتوفّي فيها سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م. كان «صادقاً في ما يرويه، عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه، كثير التصنيف والتأليف».

لابن قتيبة آثار كثيرة قيل إنها ثلاث مئة كتاب في شتى الموضوعات، منها: كتاب «معاني الشعر الكبير»، وكتاب «عيون الشعر»، وكتاب «**عيون الأخبار**»، وكتاب «المعارف»، وكتاب «**أدب الكاتب**»، وكتاب «**الشعر والشعراء**»، وكتاب «الخيل» وكتاب «خلق الإنسان»، وكتاب «الأشربة»، الخ.

أمّا «**أدب الكاتب**» فقيل ان ابن قتيبة صنّفه لأبي الحسن عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد على الله بن المتوكّل. وقد شرحه أبو محمّد بن السيّد البَطَلْيوسيّ شرحاً مستوفى، ونبّه على مواضع الغلط منه، وفيه دلالة على كثرة اطّلاع الرّجل.

وأما كتاب الشعر والشعراء فهو كتاب تناول فيه ابن قتيبة المشهورين من الشعراء فأورد أخبارهم وما يُستجاد من شعرهم وما أخذته عليهم العلماء من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم... وقد نشر الكتاب المستشرق دي غويه سنة ١٩٠٢ معتمداً في طبعته هذه على خمس مخطوطات قديمة. وفي سنة ١٩٦٤ أعادت دار الثقافة ببيروت طبع هذا الكتاب معتمدة طبعة دي غويه أساساً لعملها، ومستعينةً بعدّة علماء للتّدقيق والتعليق والتحقيق.

جـ - أبو العبّاس المُبَرِّد (٢١٠ — ٢٨٥ هـ / ٨٢٦ — ٨٩٨ م)

هو أبو العبّاس محمد بن يزيد المبرِّد، ولد في البصرة وتوفّي في بغداد، وتلمذ للمازنيّ والسّجستاني، وكان من أعلام رجال العلم والأدب، وإمام العربيّة ببغداد في زمنه. وكان ممثّلاً لمذهب البصرة في النحو فيما كان خصمه «ثعلب» ممثّلاً لمذهب الكوفة.

أشهر آثاره كتاب «**الكامل**» وقد حدّد منهجه فيه بقوله: «هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة، والنية فيه أن نفسّر كلّ ما وقع في هذا الكتاب

من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً ، وعن أن يرجع الى أحد في تفسيره مستغنياً».

ويبدو المبرِّد في كتابه من الذين «يحاولون أن **يصلوا جديد الأدب بقديمه** ، وينظرون الى هذا القديم على أنه الأصل الذي يحتذى ، والصورة الجديرة بالمحاكاة والتقليد ، مع وجوب المحافظة على هذا الأصل والإشادة به ، وصرف العناية الى حفظه وفهمه وصيانته . ولولا ذلك الولوع بالقديم والشغف به لرأينا من مثله في ثقافته الواسعة وعلمه الفضفاض آراء في النقد وتذوق الأدب ترفعه الى المنزلة الأولى بين النقّاد»[1].

د – أبو بكر الصُّولي (٣٣٥هـ / ٩٤٦م)

هو أبو بكر محمّد بن يحيى بن عبدالله الصُّولي ، ويُعرف أيضاً بالشّطرنجي لمهارته بلعبة الشّطرنج . نادم ثلاثة من خلفاء بني العبّاس هم الراضي والمكتفي والمقتدر ، وكان من أكابر علماء الأدب ، وقد توفي في البصرة سنة ٩٤٦م ، وله تصانيف كثيرة منها «**أدب الكتّاب**» ، و«**أخبار أبي تمّام**» ، و«**الأوراق**» في أخبار آل عبّاس وأشعارهم ، كما له عدّة دواوين شعريّة .

هـ – أبو منصور الثعالبي (٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)

هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل المعروف بالثّعالبي . وُلد في نيسابور ونشأ ميالاً الى الأدب حتى برع فيه . وكان فرّاءً يخيط جلود الثعالب فنُسِبَ الى صناعته . وكان في عصره من أئمّة اللغة والأدب والتاريخ ، وله في كل ذلك تصانيف كثيرة من أشهرها : كتاب «**يتيمة الدّهر في شعراء أهل العصر**» جمع فيه أخبار شعراء المائة الرابعة للهجرة في **إيجاز بعيد عن التّحليل** ؛ وكتاب «**لطائف المعارف**» و«**فقه اللغة**» ، وكتاب «**الأمثال**» .

---

١ – بدوي طبانة : دراسات في نقد الأدب العربي ص ١٩٢ .

باب الأسد والثور

قال دَبشَليم[1] مَلك الهند لبَيْدَبا[2] رأس فلاسفته: اضرب لي مثل الرجُلين المتحابَّينِ يقطعُ بينهما الكذوب الخئون ويحملُهما على العداوة والشنآن.

قال بيدبا الفيلسوف: إذا ابتليَ الرجُلان المُتحابَّان بأن يَدخل بينهما الخئون الكذوب تقاطَعا وتدابَرا، وفَسَد ما بينهما من المودة، ومن أمثال ذلك أنه كان بأرض دَستابَندَ[3] تاجر مُكثِر، وكان له بنون، فلمَّا أدركوا أسرعوا في مال أبيهم، ولم يحترفوا حِرفة ترُدُّ عليه وعليهم.[4] فَلامَهُم أبوهم ووعظهم، فكان من عظته لهم أنه قال: يا بَنِيَّ، إنَّ صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لا يُدركها إلا بأربعة أشياء: أمَّا الثلاثة التي يطلُب، فالسعة في المعيشة، والمنزلةُ في الناس، والزاد إلى الآخرة، وأمَّا الأربعة التي يحتاج إليها في دَرَكها، فاكتسابُ المال من معروف وجوهه، وحُسنُ القيام عليه، والتثمير له بعد اكتسابه، وإنفاقه فيما يصلح المعيشة ويُرضي الأهل والإخوان، ويعود عليه في الآخرة، ثم التوقِّي لجميع الآفات بجُهده. فمن أضاع هذه الخلال الأربَع لم يُدرِك ما أراد؛ لأنه إن هو لم يكتسب لم يكن

---

[1] في السريانية الحديثة: «دَبدَهرمَ»، ويُظنُّ أنه محرف عن «دَبشَرم»، وهو في السنسكريتية «دِفَشَرمَن»، ويسهل تحريفها في الفهلوية إلى «دبشلم»، وفي بعض المخطوطات العربية: «ديسلم» و«ديشلم».

[2] هو في السريانية الحديثة: «نَدرَب»، وهو محرَّف عن «بيدنا» أو «بيدبا» على اختلاف النسخ العربية، ويقابله هذا الاسم في الأصل الهندي: «فِشنوجَرمَن».

[3] في نسخة شيخو: «دستبا»، وفي النسخ الأُخرى: «دستاوند»، وفي بعض المخطوطات: «دستاباد» و«دسنا» وكأن هذا تحريف عن «دستاباد» وفي الهندية: «دكِشناباتا»، وهو اسم إقليم الدكن.

[4] في النسخ الأخرى: «حرفة يكسبون منها لأنفسهم خيرًا»، وكأنَّ هذه الجملة وضعت موضع جملة «ترُدُّ عليه وعليهم» لأنها أوضح منها.

له مالٌ يعيش به، وإن هو كان ذا مال واكتساب ثم لم يُحكِم تقديره أوشك أن ينفَد، فإذا هو ليس له شيء، وإن هو وضعه ولم يُثَمِّره لم تمنعه قلةُ الإنفاق من سرعة النَّفاد، كالكُحل الذي لا يُؤخذ منه إلا مثلُ الغُبار ثم هو سريع الفَناء، ثم إن كانت نفقته في غير مواضِع الحقوق اكتسب المذمَّة وصار إلى عواقب الندامة، وإن هو اكتسب وأصلح ثم أمسك عن إنفاقه في وجوهه كان كمن يُعَدُّ فقيرًا لا مال له، ثم لا يمنعُ ذلك ماله من أن يُفارقه ويذهب حيث لا يُريد بالمقادير والعلل؛ كالمكان الذي لا تزال المياه تنصبُّ إليه؛ فإن لم يكن له مفيض ومخرج يخرج منه بالقدر الذي ينبغي تحلَّب وسال من نواحٍ كثيرة، وربما انبثق البثق الذي لا يغادر قطرة[٥] وذهب الماء ضياعًا.

ثم إن بني التاجر اتعظوا وأخذوا بأمر أبيهم، وانطلق كبيرهم متوجِّهًا بتجارة له إلى أرض يُقال لها مَثور،[٦] فأتى في طريقه على مكان شديد الوحل، ومعه عَجَلة يجرُّها ثوران يُدعى أحدهما شتربة[٧] والآخر نَندبة،[٨] فوَحِل شتربة في ذلك الوحل، فلم يزل الرجل وأعوانه حتى أخرجوه بعد ما بلغ الجهد وأشرف على الهلكة، وخلَّف التاجر عنده رجُلًا وأمره أن يقوم عليه، فإن رآه قد أبَل وصلَح لَحِقه به، فلمَّا كان من غدِ ذلك اليوم بَرِم الأجير بمكانه، وترك الثور ولحق ابن التاجر فأخبره أنه قد مات.

وإن شتربة انتعش بعدما فارقه الرجل، فلم يزل يدِبُّ حتى أتى مرجًا خصيبًا كثير الماء والكلأ؛ لِما قُضيَ أن يُصيبه في ذلك المكان من العَرَض الذي لم يكن ليُخطئه، فإنهم يزعمون أنَّ رجلًا[٩] كان يجرُّ خشبًا فقصده ذئب ليأكله، فلم يفطن حتى دنا منه، فلمَّا رآه اشتد وجله وخرج هاربًا نحو قرية على شاطئ نهر، فلمَّا انتهى إلى النَّهر وجد

---

[٥] في النسخ الأخرى: «انبثق البثق الذي لا يصلح.»

[٦] في النسخ الأخرى: اسم الأرض: «ميون»، وفي السريانية: «متوا»، وفي الأصل الهندي (بنجا تنترا): «مثورا»، وهي مدينة جنوب أجرا تسمى الآن مترا، فنسختنا أقرب إلى الأصل.

[٧] يتبين من مقارنة المخطوطات ومن الرجوع إلى الأصل الهندي أنَّ «شتربة» أقرب إلى الصواب من «شتربة» والصيغ الأخرى.

[٨] جاءت هذه الكلمة في المخطوطات بصور مختلفة، وأقربها إلى الأصل الهندي «ننده»، ولكن النسخ العربية كلها تزيد باء في آخر الكلمة، وكأنها للمجانسة بين «شتربة» و«نندبة»، فأقرب الصيغ إلى الصواب بعد هذه المجانسة هي «نندبة».

[٩] هذا المثل محكيٌّ في النسخ الأخرى على لسان الأجير الذي أخبر التاجر أن الثور مات، وهو ناقص في نسخة شيخو والسريانية الحديثة.

عليه قنطرة منكسرة، ورَهِقه الذئب، فقال: كيف أصنَعُ؟ الذئب يتلوني، والنهر عميق، والقنطرة مكسورة، وأنا لا أُحسن السباحة، غير أن الأحرز أن أرمي بنفسي في الماء، فلمَّا وقع فيه رآه أهل القرية، فأرسلوا إليه من استخرجه وقد أشرف على الهلكة، ثم أتاهم به، فتساند إلى حائط، فلما أفاق حدَّثهم بما لقي، وعِظَم هول ما خلَّصه الله منه، فبينما هو على ذلك إذ تهدَّم عليه الحائط فقتله.[١٠]

ثم إن شتربة لم يلبث أن عَكِد وشحُم وترَّ وجعل يحُكُّ بقرنيه الأرض ويخور،[١١] ويرفع صوته بالخوار، وكان بقربه أسَد يُقال له بِنكلة،[١٢] وكان ملك تلك الناحية ومعه سباع كثيرة من الذئاب وبنات آوى والثعالب وغير ذلك، وكان مزهُوًّا متكبِّرًا منفردًا مكتفيًا برأيه، وإنَّ ذلك الأسد لَمَّا سمع خُوار الثور، ولم يكن رأى ثورًا قط، ولا سمع خُواره، رُعِب منه، وكَرِه أن يفطن لذلك جُندُه، فلم يبرح من مكانه.

وكان فيما معه ابنا آوى، يُقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة،[١٣] وكانا ذَوَيْ دهاءٍ وأدبٍ، وكان دمنة أشرهما نفسًا، وأبعدَهما همَّة، وأقلَّهما رضًا بحاله، ولم يكن الأسدُ عرفهما، فقال دمنة لكليلة: ما ترى يا أخي؟ ما شأن الملك مقيمًا في مكانه لا يتحوَّل ولا ينشَط كما كان يفعل؟ فقال كليلة: ما شأنُك والمسألة عمَّا ليس لك ولا يعنيك؟ أمَّا نحن فحالنا حالُ صِدق، ونحنُ على باب الملك واجدون ما نأكل، ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك وما يكون من أمورهم، فاسكتْ عن هذا، واعلم أنَّه من تكلف من القول والعمل ما ليس من شكله أصابه ما أصاب القرد؛ قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

---

[١٠] في النسخ الأخرى أنَّ الرجل بعد أن أُخرِج من الماء رأى بيتًا مفردًا، فأوى إليه فإذا جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجلٍ وهم يقتسمون ماله ويريدون قتله ... إلخ.

[١١] توافق نسختنا في هذه الجملة: «وجعل يحك ... إلخ» النسخة السريانية الحديثة، وهي ليست في النسخ الأخرى.

[١٢] ليس في النسخ الأخرى تسمية الأسد، وهو في الهندية: «بنكَلاكه»، ومعناه الأصهب، وفي نسختنا: «شكَله» والظاهر أنه تحريف «بنكلة»، وهو اختصار الاسم الهندي.

[١٣] «كليلة» ذُكِر في الأصل «كَرتكَا»، واللام والراء في الفهلوية لهما صورة واحدة، فمن اليسير أن تحرَّف الراء إلى اللام، وكذلك لا يبعد أن تحرَّف التاء إلى الياء، وأمَّا إبدال الكاف الأخيرة هاء فهو شائع بين الفهلوية والفارسية الحديثة، و«دمنة» ذُكر في الهندية باسم «دَمَنَكة» وهما في النسخة السريانية: «كَليلك» و«دَمَنَك».

قال كليلة: زعموا أنَّ قردًا رأى نجَّارًا يشقُّ خشبة على وتدين راكبًا عليها كالأُسوار على الفَرَس، وكلما شقَّ منها ذراعًا أدخل فيها وتدًا، وأنَّ النجار قام لبعض شأنه، فانطلق القرد يتكلف من ذلك ما ليس من صناعته، فركب الخشبة ووجهه قِبَل ذلك الوتد، وتدلَّت خُصيتاه في الشق، فلما نزع الوتد انضمَّت الخشبة على خُصيتيه، فخرَّ مغشيًّا عليه، وجاء النَّجار فكان ما لقيَ منه من الضرب أشدَّ مما مرَّ به أضعافًا كثيرة.

قال دمنة: قد فهمتُ ما ذكرتَ، وسمعتُ المثل الذي ضربتَ، ولكن اعلم أنَّه ليس كلُّ من يدنو من الملوك إنما يدنو منهم لبطنه، فإنَّ البطن يُحشى بكل مكان، ولكنه يلتمس بالقرب منهم أن يَسُرَّ الصديق ويسوءَ العدو، فأدنأُ الناس وأضعفهم مُروءةً الذين يرضون بالقليل ويفرحون به، كالكلب الجائع الذي يُصيب عظمًا يابسًا فيفرح به، فأمَّا أهل المروءة والفضل فلا يُغنيهم القليلُ ولا يفرحون به دون أن يَسمُوا إلى ما هُم له أهل؛ كالأسد الذي يفترس الأرنب، فإذا رأى العَيْر تركها وأخذه؛ أوَلَا ترى أنَّ الكلب يُبَصبِص بذنَبِه حتى تُلقى إليه الكِسرة، وأنَّ الفيل المغتلم يعرف فضل نفسه، فإذا قُدِّم إليه علفه مكرَّمًا لم يأكله حتى يُمسح رأسه ويُتملَّق؟ فمن عاش ما عاش غير خامل المنزلة، ذا فضل على نفسه وأصحابه، فهو — وإن قلَّ عمره — طويلُ العُمُر، ومن كان عيشه في وحدة وضيق وقِلَّة خير على نفسه وأصحابه، فهو — وإن طال عمره — قصير العمر، فإنه يُقال: إنَّ البائس من طال عمره في ضُرٍّ، وقيل: لِيُعَدَّ من البقر والغَنَم من لم تكن هِمَّته إلا بطنه وفرجه.

قال كليلة: قد فهمتُ ما ذكرتَ، فراجع عقلك، واعلم أنَّ لكل إنسان منزلةً وقدرًا، فإذا كان في منزلته التي هو فيها مُكتفيًا متماسكَ الحال في أهل طبقته كان حقيقًا أن يقنع ويَرضَى، وليس لنا من المنزلة ما نسخط له حالنا التي نحن عليها.

قال دمنة: إنَّ المنازل مُتنازَعة مشتركة، فذو المُروءة ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرَّفيعة، والذي لا مُروءةَ له يَحُطُّ نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة، والارتفاع من ضعة المنزلة إلى شرفها شديد المؤنة، والانحطاطُ منها إلى الضَّعة هيِّنٌ يسير، وإنما مثلُ ذلك كالحجر الثقيل الذي رفْعُه من الأرض إلى العاتق شاق، وطرحُه من العاتق إلى الأرض يسير، فنحنُ أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل بمُروءاتنا، ولا نقيم على حالنا هذه، ونحن نستطيع ذلك. قال كليلة: فما هذا الذي تُجمِع عليه؟ قال دمنة: أريد أن أتعرض للأسد عند هذه الفرصة، فإنه ضعيفُ الرأي، وقد التبس عليه وعلى جُنده أمرُهم، فلعلِّي أدنو منه وأصيب حاجتي عنده.

فقال كليلة: وما يدريك أنَّ ذلك على ما وصفتَ؟ قال دمنة: أعرف ذلك بالرأي والفطنة والظن والحدْس، فإنَّ الرجُل ذا الرأي ربما عرف حال صاحبه وغامِضَ أمره بما يظهر له من أمره وصنيعه، حتى لعلَّ ذلك أن يكون من قِبَل دَلِّهِ وشكله. قال كليلة: كيف ترجو المكانَةَ عند الأسد ولست صاحب سلطان، وليس لك علمٌ بخدمتهم[١٤] وآدابهم، وما يُوافقهم ويُخالفهم؟ قال دمنة: إنَّ الرجل القويَّ الشديد لا يعيا بالحمل الثقيل وإن بُدِهَ به، بل يستقلُّ به وتكون له القوة عليه، فلا يُعسِّف الشديد حَملٌ، ولا القُلَّبَ عملٌ، ولا العاقلَ أرضٌ، ولا المتواضع اللِّين الجانب أحدٌ، قال كليلة: إنَّ السلطان لا يتوخَّى بكرامته أفضل مَن بحضرته، ولكنه يُؤثر بذلك مَن قرُب منه، ويُقال: إنَّ مَثَل السلطان في ذلك كالكرْم الذي لا يتعلق بأكرم الشجر ولكن بأدناها منه، وكذلك السلطان، فكيف ترجو المنزلة عند الأسد، ولست ممن يغشاه ولا تدنو منه؟ قال دمنة: قد فهمتُ ما ذكرتَ وصدقتَ، ولكن اعلَمْ أنَّ الذين لهم المنازل الحسَنةُ عند السلطان قد كانوا وليست تلك حالَهم، فتقرَّبوا منه بعد البُعد عنه، ودنوا إليه، فأنا ملتمسٌ مثل ذلك وطالبٌ بُلوغه، وقد قيل: لا يواظب أحدٌ على باب السلطان ويطرح الأنَفة، ويحمِل الأذى، ويُظهر البِشر، ويكظِم الغيظ، ويَرفُق في أمره إلا خَلَص إلى حاجته منه.

قال كليلة: فهَبك قد وصلت إلى الأسد، فما رِفقك[١٥] الذي ترجو أن تنال به المنزلة عنده؟ قال دمنة: لو قد دنوت من الأسد وعرفت أخلاقه، رفقتُ في متابعته وقلة الخلاف عليه، ثم انحططتُ في هواه، فإذا أراد أمرًا هو في نفسه صوابٌ زَيَّنته له وشجَّعته عليه، حتى يعمل به ويُنفِذَ رأيَه فيه، وإذا همَّ بأمرٍ أخاف ضَرَّه إياه بصَّرته ما فيه من الضرر والشَّيْن، بأرفق ما أجد إليه السبيل وألينه، فإنِّي أرجو أن يرى مني في ذلك أفضل مما يرى من غيري، فإنَّ الرَّجُل الأديب الأريب الدَّهِيَّ لو شاء أن يُبطل الحق ويُحِقَّ الباطل أحيانًا لفعل، كالمصوِّر الماهر الذي يصوِّر في الحائط تماثيل كأنها خارجة وليست

---

[١٤] يستعمل الكاتب «السلطان» في معنى الجمع، وهو استعمال قديم، جاء في كتاب «الكامل» للمبرد حكاية عن الأحنف بن قيس: «ولا جئت باب أحدٍ من هؤلاء، يعني السلطان، ما لم أُدْعَ إليه.» وقد دعا هذا الاستعمال بعض اللغويين إلى ادعاء أن «السلطان» جمع «سليط»، والظاهر أنَّ النسخ الأخرى حرَّفت الكلام لتجعل السلطان مفردًا في كل المواضع، وهذا وأمثاله مما تمتاز به نسختنا (انظر المقدمة).

[١٥] في النُّسخ الأخرى، ما عدا شيخو، وضعت كلمة «توفيقك» بدل «رفقك»، والظاهرُ أنَّه تحريف أدى إليه جهل النسَّاخ بمعنى «الرفق» ههنا.

بخارجة، وأخرى كأنها داخلة وليست كذلك، فإذا هو عَرف نُبلي وكمال ما عندي كان هو الذي يلتمس إكرامي وتقريبي.

قال كليلة: أمَّا إذا كان هذا من رأيك فإني أحذِّرك صحبة السُّلطان، فإنَّ في صحبة السلطان خطرًا عظيمًا، وقد قالت العُلماء: أمورٌ ثلاثة لا يجترئ عليها إلا الأهوجُ، ولا يسلم منها إلا القليل: صحبة السلطان، وائتمان النِّساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة، وإنما شبَّه العلماء السلطانَ بالجبَل الوعْر الذي فيه الثمار الطيبة، وهو معدِن السباع المخوفة، فالارتقاء إليه شديد، والمُقامُ فيه أشدُّ وأهول.

قال دمنة: قد صدقت فيما ذكرتَ وفهمتُه، ولكني أعرف أنَّ من لم يركب الأهوال لم ينَلِ الرَّغائب، ومن ترك الأمر الذي لعلَّه أن يبلُغ منه حاجته مخافة لما لعله يتوقاه ويُشفق منه، فليس ببالغ جسيمًا، وقد قيل في أمور لا يستطيعها أحدٌ إلا بمعونةٍ من ارتفاع همة وعِظَم خَطَر، منها عَمَلُ السلطان، وتجارةُ البحر، ومناجزةُ العدو، وقيل أيضًا: لا ينبغي للرَّجل ذي المروءة أن يُرى إلَّا في مكانين، ولا يليق به غيرُهما: إمَّا مع الملوك مُكرَّمًا، وإمَّا مع النُّسَّاك متبتلًا، كالفيل الذي إنما بهاؤه وجماله في مكانين: إما في البرِّيَّة وحشيًّا، وإما مَركبًا للملوك.

قال كليلة: خار الله لك فيما عزمت عليه.

ثم إنَّ دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلَّم عليه، فقال الأسد لقرابينه:[١٦] مَن هذا؟ قالوا: ابن فلان، قال الأسد: قد كنت أعرف أباه، ثم قال له: أين كنت تكون؟

قال دمنة: لم أزل بباب الملك مُرابطًا رجاء أن يحضُر أمرٌ أُعِينُ الملك فيه برأيي ونفسي، فإنَّ باب الملك يكثُر فيه الأمور التي ربما احْتِيج فيها إلى من لا نباهة له، وربما كان صغير المنزلة فيكون عنده منفعة بقدره، فإنَّ العود المطروح في الأرض ربما انتفع به الإنسان في حكِّ أذنه، فالحيوان العالم بالضرر والنفع حَرِيٌّ بأن يكون ذلك عنده وينتفع به.

فلمَّا سَمِعَ الأسد كلامَ دمنة أعجبه واستظرفه، ورجا أن يكون عنده نصيحةٌ ورأيٌ، فأقبل على قرابينه، فقال لهم: إنَّ الرجل ذا النُّبل والفضل لَيَكُونُ خاملَ الذِّكر، غامض

[١٦] في الأصل: «لقرابته» وفي النسخ الأخرى: «لجلسائه». والظاهر أن جهل النسَّاخ بمعنى «قرابين» أدى إلى تحريفها إلى «قرابته» في نسختنا، وإلى إبدالها «بجلسائه» في النسخ الأخرى، فلذلك وضعنا كلمة «قرابين» مكان «قرابة» في هذا الموضع وغيره.

الأمر، فتأبى مروءته إلا أن يظهر ويستبين، كالشعلة من النار التي يصونها[١٧] صاحبها وتأبى إلَّا ضياءً وارتفاعًا، فلمَّا عرف دمنة أنَّ الأسد قد أعجبه كلامُه قال: إنَّ رعية الملك ومن بحضرته منهم يجب[١٨] أن يُعرِّفوه ما عندهم من المروءة والعلم، ويبذلوا له نصيحتهم، فإنَّ الملك لا يعرفهم ولا يضعهم في منازلهم التي هم أهلُها ومستحقُّون لها إلا بذلك، كالزرع المدفون في الأرض من الحنطة والشعير وسائر الأنواع، فلا يستطيع أحدٌ أن يعرفه ولا يصفه حتى يكون هو الذي ينجُم ويَظهر ويَخرج على الأرض، وقد يحِقُّ على من خصَّه السلطان أن يُطلِعه على ما عنده من المنفعة والأدب، ويحِقُّ على السلطان أن يبلغ بكل امرئ مرتبته على قدر رأيه وما يجدُ من المنفعة عنده. فإنه كان يُقال: أمران لا ينبغي لأحد — وإن كان ملكًا — أن يجعل شيئًا منهما في غير مكانه، وأن يُنزله غير مَنزلته: الرِّجال والحلية، فإنه يُعدُّ جاهلًا من عقد على رأسه حلية الرِّجْلَيْنِ، وعلى رجليه حلية الرأس، ومن ضبَّب اللؤلؤ والياقوت بالرصاص، فليس ذلك بتصغير للياقوت واللؤلؤ، ولكنه جهلٌ ممن فعل ذلك.

وكذلك كان يُقال: لا تصاحبنَّ رجلًا لا يعرف موضعَ يمينه وشماله، وإنما يَستخرج ما عند الرجال وُلاتُهم، وما عند الجنود قادتهم، وما في الدين علماؤه، وقد قيل في أشياءَ ثلاثةٍ؛ فضلُ ما بينها متفاوت: فضل المقاتِل على المقاتِل، وفضل العالِم على العالِم، وفضل الفيلِ على الفيلِ.[١٩] وكثرةُ الأعوان — إذا لم يكونوا نصحاء مجرَّبين — مَضَرَّة على العمل، فإنَّ العمل ليس بذلك رجاؤه، بل بصالح الأعوان وذوي الفضل، كالرَّجل الذي يحمل الحجر الثقيل فيُثقِلُه، ولا يجد له ثمنًا، والرجل الذي يحمل الياقوت فلا يَثقُل عليه، وهو قادر على بيعه بالكثيرِ من المال، والعمل الذي يحتاج فيه إلى الجِذْع لا يُجزئه القَصَبُ وإن كثر، والوالي حقيقٌ ألا يحتقر مُروءةً وجدها عند أحد وإن كان صغير المنزلة، فإنَّ الصغير ربما عظُم، كالعصب الذي يؤخذ من الميتة، فإذا عُمِلت منه القوس أُكرِم فيقبض عليه الملك ويحتاجُ إليه في لهوه وبأسه.

---

[١٧] في الأصل وشيخو: «يصونها»، وفي النسخ الأخرى: «يضربها»، وقريبٌ من هذا في السريانية الحديثة.

[١٨] في الأصل: «يجوز»، وفي السريانية الحديثة: «يجب»، وهو أقرب إلى سياق الكلام فلذلك أثبتناه هنا.

[١٩] يذكر في النسخ الأخرى الأمران الأول والثاني فقط، وفي شيخو: «المتكلم على المتكلم» بدل «الفيل على الفيل»، وكأنَّ هذا نشأ من تحريف كلمة «الفيل» إلى «القيل» بالقاف، وفي السريانية الحديثة: «الرجال على الرجال، والفيلة على الفيلة، والمعلمين على المعلمين.»

وأحبَّ دمنة أن يصيب الكرامة من الأسد، والمنزلة عنده وعند جنده، ويعلمهم أنَّ ذلك ليس لمعرفة أبيه فقط، ولكن لرأي دمنة ومروءته، فقال: إن السلطان لا يُقرِّب الرجال لقرب آبائهم ولا يباعدهم لبعدهم، ولكنه ينظر إلى ما عندهم وما يحتاج فيه إليهم، ثم يُمضي رأيه على ما يحقُّ عليه فيهم من إنزالهم مَنَازِلهم، فإنَّه لا شيءَ أقربُ ولا أخصُّ بالرجُل من جَسَده، ورُبَّما دَوِيَ عليه حتى يؤذيه، فلا يدفعُ ما به عنه إلا الدواء الذي يأتيه من بعيد، والجُرذ مُجاوِرُ الإنسان في البيت، فمن أجل إضراره نُفي، والبازي وحشيٌّ غريب، فلمَّا صار نافعًا اقتُنيَ واتُّخِذ وأُكرِم.

فلما فرغ دمنة من مقالته ازداد الأسد به إعجابًا وله استظرافًا، وأحسن عليه الرد، وقال لجلسائه: إنه ينبغي للسلطان ألا يَلِجَّ في تضييع حقِّ ذي الفضل والمروءة ولا وضْع منزلته، وأن يَستدرك ما فاته من ذلك ولا يغرَّه أن يرى من صاحبه المفعول به ذلك رضًا، فإنَّ الناس في ذلك رجلان: أحدهما طباعه الشراسة، فهو كالحيَّة التي إن وطئها الواطئ فلم تلدغه، لم يكن جديرًا أن يعود لوطئها ثانية، وآخر طباعه السهولة واللين، فهو كالصندل الذي إذا أُفرِط في حكِّه صار حارًّا مؤذيًا.

فلما استأنس دمنة بالأسد وخلا به، قال: إني قد رأيتُ الملك أقام منذ زمان بمكان واحد لا يبرح منه، ففيم ذلك؟ قال له الأسد، وكَرِه أن يعلم منه دمنةُ جُبنًا: لم يكن ذلك لبأس.

فبينما هما على ذلك إذ خار الثور خُوارًا شديدًا، فهيَّج الأسدَ على أن يُخبِر دمنة بما في نفسه، فقال: هذا الصوت الذي تسمع، ما أدري ما هو؟ غير أنَّه خليقٌ أن تكون الجُثَّة على قدر الصوت، فإن يكن ذلك كذلك فليس مكاننا هذا لنا بمكان، قال دمنة: هل رابَ الملكَ شيْ غيرُ هذا؟ قال الأسد: لم يكن غير هذا، قال دمنة:[٢٠] ليس الملكُ بحقيقٍ أن يبلغ منه هذا الصوت أن يدع مكانه، فإن السكْر الضعيف آفتُه الماء، والشرفَ آفتُه الصَّلَف، والمودَةَ آفتُها النميمة، والقلب الضعيف آفتُه الصوت والجلبة، وفي بعض الأمثال بيانُ أنه ليس كلُّ الأصوات تُهاب، قال الأسد: وما ذلك المثل؟ قال دمنة: زعموا أن ثعلبًا جائعًا

[٢٠] في النسخ الأخرى إلَّا شيخو أن دمنة قال للأسد: ليس من كل الأصوات تجب الهيبة، فقال الأسد: وما مَثَلُ ذلك؟ فقصَّ دمنة مثل الثعلب والطبل، وظاهرٌ أنَّ ما هنا أقرب إلى سياق الكتاب، أعني أنَّ دمنة يشير إلى المثل، والأسد يطلب منه أن يقصه.

مرَّ بأجَمةٍ فيها طبل معلق في شجرة، فهبَّت الريح فجعلت قُضبان الشجرة تقرع ذلك الطبل فيصوِّت صوتًا شديدًا، فسمع الثعلبُ ذلك الصوت فتوجه إليه حيث أتاه، فلما رآه ضخمًا ظنَّ أن ذلك لكثرة شحمه ولحمه، فعالجه حتى شقَّه، فلما رآه أجوف قال: ما أدري، لعل أفسل الأشياء أعظمها جثة وأشدُّها صوتًا.

وإنما ضربت لك هذا المثل رجاء أن يكون الذي يَذعرنا من هذا الصوت ويروعنا لو قد انتهينا إليه وجدناه أيسَر أمرًا مما في أنفسنا، فإن شاء الملك فليبعثني نحوه وليُقِم مكانه حتى أرجعَ إليه ببيان ما يُحبُّ أن يعلم منه، فوافق ذلك الأسد، وانطلق دمنة إلى المكان الذي فيه شتربة.

فلما فصل دمنة من عند الأسد فكَّر الأسد في أمره، فندِم على إرساله، وقال في نفسه: ما أصبتُ بائتماني دمنة على ما ائتمنته، ووجَّهته فيه، فإنَّ الرجل الذي بحضرة السلطان إذا كان قد أطيلت جفوته عن غير جُرم كان منه، أو كان مبغيًّا عليه، أو كان

معروفًا بالحرص والشره، أو كان قد أصابه ضُرٌّ، أو ضيقٌ فلم يُنعَش، أو كان قد أجرم جُرمًا فهو يخافُ العقوبة، أو كان شِرِّيرًا لا يحب الخير، أو كان قد وُقِف على خيانته، أو كان قد حيل بينه وبين ما كان في يده من سلطان، أو كان يلي عملًا فعُزِل عنه أو فُرِّق عليه أو انتُقِص منه أو أُشرك بينه وبين غيره فيه، أو كان أذنب في نظرائه فعُفِيَ عنهم وعوقب، أو عوقبوا جميعًا فبُلِغ منه ما لم يُبلَغ من أحد منهم مثله، أو كان قد أبلى بلاءَ نظرائه ففُضِّلوا عليه في المنزلة والجاه، أو كان غيرَ موثوق به في الهوى والدين، أو كان يرجو في شيءٍ مما يضر بالولاة نفعًا، أو يخافُ في شيءٍ مما ينفعهم ضَرًّا، أو كان لعدوِّ السلطان مُوادًّا، كلُّ هؤلاء ليس السلطان حقيقًا بالاسترسال إليهم، والطُّمَأنينة إلى ما قِبَلهم، والائتمان لهم، وإنَّ دمنة داهٍ أريب، وقد كان ببابي مطروحًا مجفوًّا، فلعله قد احتمل عليَّ بذلك ضِغنًا، ولعل ذلك يدعوه إلى أن يخونني ويبغي عليَّ، ولعله يُصادف صاحب الصوت أقوى مني وأعظمَ سُلطانًا فيرغب فيما عنده، ويميل عليَّ معه فيدلَّه على عورتي، فلم يزل الأسد يحدِّث نفسه بذلك ويراجعها فيه حتى استخفه ذلك وقام من مجلسه، فجعل يمشي وينظر إلى الطريق حتى رُفِع له دمنة من بعيد مُقبِلًا وحده، فاطمأن ورجع إلى مكانه كراهةَ أن يظن دمنة أنَّ شيئًا أقلقه وأزعجه من مكانه.

فلما دخل عليه دمنة، قال له الأسد: ما صنعتَ وما رأيت؟ قال دمنة: رأيت ثورًا، وهو صاحب الصوت الذي سمعتَ، قال الأسد: فما حاله وشدته؟ قال: لا شدةَ له، فقد دنوتُ منه وحاورته محاورة الأكْفَاء، فلم يستطع لي شيئًا. فقال الأسد: لا يغرَّنك ذلك منه، ولا تضعنَّ ذلك على الضعف، فإنَّ الريح الشديدة لا تضُرُّ بصغير الحشيش ولا تحطمه وهي تحطم الشجر، وكذلك الصناديد إنما يصمد بعضها لبعض. قال دمنة: لا يهابنَّ الملك أمره ولا يُكبِرَن في صدره شيئًا منه، وأنا آتيه به حتى يكون له عبدًا سامعًا مطيعًا، ففرح الأسد بذلك وقال له: دونَك.

ثم إنَّ دمنة انطلق إلى شتربة، فقال له غير هائب ولا مُتَعْتِع: إنَّ الأسد أرسلني إليك لآتيه بك، وأمرني إن أنت عجَّلت الإقبال عليه طائعًا أن أؤمِّنك على نفسك وما سلَف منك من الذنب في التأخير عنه والترك للقائه، وإن تأخرت أن أعجِّل الرجعة إليه فأخبره بذلك، قال شتربة: ومن هذا الأسد الذي أرسلك إليَّ، وأين هو؟ قال دمنة: هو ملك السِّباع، ومعه جُند كثيرٌ منهم، فرُعِب الثور من ذلك، وقال: إن أنت جعلت لي على نفسك عهدًا، أو أخذتَ لي منه الأمان أقبلتُ معك، فأعطاه دمنة ما سأل من ذلك.

ثم أقبلا جميعًا حتى دخلا على الأسد، فأحسنَ الأسدُ مسألة شتربة، وألطفه، وقال له: متى قدمتَ هذه الأرض؟ وما نزع بك إليها؟ فقصَّ عليه أمره، فقال له الأسد: الزمني، فإني مُكرِمك ومحسِنٌ إليك، فدعا له شتربة وأثنى عليه.

ثم إنَّ الأسد قرَّب شتربة وأدناه وكرَّمه، وآنس منه رأيًا وعقلًا، فائتمنه على أسراره وشاوره في أموره، ولم تزده الأيام إلَّا إعجابًا به ورغبةً فيه وتقريبًا له، حتى صار أخصَّ أصحابه عنده منزلةً؛ فلمَّا رأى دمنة أنَّ الملك قد استخصَّ شتربة واستدناه دونه ودون أصحابه، وأنه صاحبُ رأيه وخَلَواته وأُنسه ولهوه، اشتدَّ ذلك عليه، فشكا ذلك إلى كليلة أخيه وقال: أَلَا تَعجَب لعجز رأيي وصنيعي بنفسي، ونظري فيما ينفع الأسد، وإغفالي أمر نفسي، حتى جلبت ثورًا غلبني على منزلتي؟ قال كليلة: أصابك ما أصاب الناسكَ؟ قال دمنة: وكيف كان ذلك؟ قال كليلة: زعموا أنَّ ناسكًا أصاب من بعض الملوك كُسوة فاخرة، فبَصُرَ بها لصٌّ فرغب فيها، فصرَّف الحِيَل وقلَّب الأمور لاستراقه إياها، فأتاه فقال: إني أريد أن أصحبك وأتعلم منك وآخذ عنك، فأجابه إلى ذلك، فلزمه ولطف به، وأحسن الخدمة له حتى أَمِنه ووثِق به وفوَّض إليه أمره، حتى إذا ظفر من الناسك بغفلةٍ أخذ الثياب وذهب بها، فخرج في طلبه نحو مدينة من المدائن فمرَّ في طريقه على وَعْلَين يتناطحان وقد سالت دماؤهما، وجاء ثعلب فجعل يَلَغُ في الدماء، فبينما هو يَلَغُ إذ التقيا عليه وهو غافل فقتلاه، ثم مضى حتى أتى المدينة مُمسيًا فنزل على امرأة فاجرة من غير معرفة، وكان لها جاريةٌ تؤاجرها قد عشقت رجلًا فهي لا تريد غيره، فأضرَّ ذلك بمولاتها، فاحتالت لقتل ذلك الرجل الذي عشقته جاريتها في تلك الليلة التي أضافت بها الناسك، فسَقتِ الرجلَ من الخمر صِرفًا حتى سكِر ونام، فعمدت إلى سمٍّ فوضعته في قصبة وجاءت بها إلى دُبُرِه لتنفخه فيه، وفمُها على رأس القصبة، فلما وضعتها بَدَرَتْها ريح خرجت من دُبُرِ الرجل، فرجع السمُّ في حلقها فوقعت ميتة، وكل ذلك بعين الناسك.

ثم أصبح غاديًا في طلب منزل غير ذلك المنزل، فأضافه رجل إسكاف، فقال الإسكاف لامرأته: انظري هذا الناسك فأكرميه وأحسني إليه، فإنه قد دعاني بعض أصحابي إلى منادمتهم.

وكان لامرأة الإسكاف صديق قد عَلِقها وعَلِقته، وكان الرسول فيما بينهما امرأةُ حَجَّام جارةٌ لها، فأرسلت امرأة الإسكاف إلى امرأة الحجَّام، فأمرتها أن تأتي صديقها وتخبره أنَّ الإسكاف غائب في الشرب، وأنه لا يرجع إلَّا مُمسيًا وهو سكران، فتأمره أن يأتي عند العشاء فيقعد على الباب حتى تأذن له فيدخل عليها، فأقبل صديقها عَشيًّا حتى قعد على الباب ينتظر أمر المرأة.

وانصرف الإسكاف إلى بيته حين أمسى وهو سكران، فلمَّا رأى الرجل قاعدًا على باب منزله ارتاب به وغضب، ودخل إلى البيت فأخذ امرأته فأوجعها ضربًا وأوثقها إلى ساريةٍ من سواري البيت، فلما هدأت العيون جاءت امرأة الحجَّام إليها فقالت لها: قد أطال الرجلُ صديقُك القعود، فماذا تريدين؟ فقالت: لو أحسنتِ إليَّ بأن تُخلِّيني وتربطي نفسك مكاني ساعة حتى آتيه ثم أسرع الكرَّة إليك، ففعلت وحلَّتها وربطت نفسها مكانها، فانتبه الإسكاف قبل أن ترجع امرأته، فناداها باسمها فلم تجبه امرأة الحجَّام مخافةَ أن يعرف صوتها، ثم دعاها مرارًا كثيرة وهي لا تجيبه، فازداد عليها غيظًا وحنقًا، ثم قام إليها بسكينٍ فجدع أنفها، وقال لها: تناولي هذا وأتحِفي به خليلك.

فلمَّا رجعت امرأة الإسكاف ورأت زوجها نائمًا، وعرفت ما حلَّ بامرأة الحجَّام حلَّتها وربطت نفسها مكانها، وأخذت امرأة الحجَّام أنفها بيدها ومضت إلى بيتها، وكلُّ هذا بعينِ الناسك.

ثم إنَّ امرأة الإسكاف فكَّرت في أمرها وطلبت المَخرج، فرفعت صوتَها تدعو وتتضرع وتبكي وتقول: اللهمَّ إن كان زوجي قد ظلمني واعتدى عليَّ فأعِد إليَّ أنفي صحيحًا كما كان، ثم نادت الإسكاف أن قُم أيُّها الظالم! وانظر إلى أمر ربك وقضائه ونعمته عليَّ، فإنه قد أعاد أنفي صحيحًا كما كان، فقال الإسكاف: ما هذا الكلام يا ساحرة؟ ثم قام فأوقد نارًا ونظر، فإذا الأمر كما قالت، فتاب إلى ربه واعتذر إلى امرأته وترَضَّاها وتنصل إليها وسأل الله المغفرة.

ولما انتهت امرأة الحجَّام إلى بيتها قلَّبت الحِيَل ظهرًا لبطن، والتمست المخرج مما وقعت فيه، وقالت: ما عُذري عند زوجي وعند الناس في جدْع أنفي؟ فلمَّا كان عند السَّحَر استيقظ الحجَّام وناداها أن ائتيني بمتاعي كلِّه، فإني أريد أن أنطلق إلى بعض الأشراف، فلم تأتِه إلَّا بالموسى وحده، فقال: هاتي متاعي كله، فلم تَزِدْه على الموسى، فغضب ورماها بالموسى، فألقت نفسها إلى الأرض وولولت، وقالت: أنفي أنفي، وأقبلت تصيح وتضطرب، فجاء أقاربها فأخذوه وانطلقوا به إلى القاضي، فقال القاضي للحجَّام: ما حملك على جدع أنف امرأتك؟ فلم تكن له حُجَّة يحتجُّ بها، فأمر بالحجَّام أن يُعاقَب، فلما أُقيم لذلك، قام الناسك فتقدم إلى القاضي فقال: أيها القاضي، لا يشتبِهنَّ عليك، إنَّ اللص ليس سَرَقني، وإنَّ الثعلب ليس الوعلان قتلاه، وإنَّ البغيَّ ليس السم قتلها، وإنَّ امرأة الحجام ليس زوجها جدع أنفها، بل نحن فعلنا ذلك بأنفسنا، فسأله القاضي عن تفسير ذلك فأخبره.

قال كليلة لدمنة: وأنت أيضًا فعلت ذلك بنفسك، قال دمنة: نعم! ما ضرَّني غير نفسي، ولكن ما الحيلة؟ قال كليلة: بل أخبرني أنت عن رأيك، قال دمنة: أمَّا أنا فلستُ ألتمس أن تزداد منزلتي فوق ما كنت، ولكني أُريد أن تعود إلى ما كانت عليه، فإنَّ خِلالًا ثلاثًا المرءُ حقيقٌ بالتفكُّر فيها والاحتيال لها: ما يمضي من الضرِّ والنفع بأن يحترس من الضرِّ الذي أصابه لئلَّا يعود إليه، ويرفق في المحبوب طلب مراجعته، وما هو مُقيم فيه من ذلك فيستوثق مما يوافقه ويهرب مما يُخالفه، وما هو منتظِر له فيطلب المرجو ويلتجئ من المحذور بالاستعداد لما يرجو أو يخاف.

وإني لَمَّا نظرتُ في أمري الذي أرجو أن يعود لي منه ما غُلِبت عليه مما كنتُ فيه، لم أجد شيئًا غير الاحتيال لشتربة حتى يُفارق الحياة، فإني إن قدرت على ذلك صرتُ إلى حالي عند الأسد، ولعل ذلك أن يكون خيرًا له، فإن إفراطه فيه[٢١] خليقٌ أن يَشينَه.

قال كليلة: ما أرى على الأسد في شتربة مضرَّة ولا منقصة ولا شينًا، قال دمنة: إنَّ السلطان إنما يؤتى من قِبَل سِتٍّ خلال: الحِرمان، والفتنة، والهوى، والفظاظة، والزمان، والخُرق. فأمَّا الحرمان فهو أن يَفقِد الأعوان والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة، أو يُبعد بعض من هو كذلك، وأمَّا الفتنة فهي تحزُّب الناس ووقوع التحارب بينهم، وأمَّا الهوى فهو الإغرام بالنِّساء أو الحديث والشرب والصَّيد وما أشبه ذلك، وأمَّا الفظاظة فالإفراط في الشدة حتى يُبتلى اللسان بالشتم واليدُ بالبطش والضرب، وأمَّا الزمان فهو ما يُصيب الناس من القحط والموت ونقص الثمرات وأشباه ذلك، وأمَّا الخُرق فإعمال الشدَّة في موضع اللين، والرفق في مكان الغلظة.

وإنَّ الأسد قد أُغرِم بشتربة إغرامًا شديدًا، فهو خليقٌ أن يُزرِيَ به ويشينه. قال كليلة: وكيف تُطيق الثور وهو أشدُّ منك، وأكرم على الأسد، وأحسن منزلةً، وأكثرُ أصدقاء وأعوانًا؟ قال دمنة: لا تنظرنَّ إلى صِغَري وضعفي، فإنَّ الأُمور ليست بالقوة والعِظَم، ورُبَّ ضعيف صغير قد بلغ بدهائه وحيلته ورأيه ما يعجز عنه كثيرٌ من الأقوياء، أَوَ لم يبلغك أنَّ غُرابًا احتال لأسْوَد حتى قتله. قال كليلة: وكيف كان هذا الحديث؟ قال دمنة: زعموا أنه كان وَكْر لغراب في شجرة في جبل، وكان بقربه جُحر أسوَد، وكان الغراب كلما فرَّخ عَمد الأسوَد إلى فراخه فأكلها، فاشتد ذلك عليه، وبلغ منه مبلغًا شديدًا، فشكا

[٢١] في النسخ الأخرى: «فإن إفراطه في أمر الثور» أو «... في تقريب الثور.»

ذلك إلى صديق له من بنات آوى، وقال: أردت أن أستأمرك في شيءٍ هممتُ به إن أنت وافقتني عليه، قال: وما هو؟ قال: أن آتيَ الأسوَد وهو نائم، فأنقُرَ عينيه لعلي أفقأهما. فقال ابن آوى: بئست الحيلة هممتَ بها! فالتمس أمرًا تصيب منه حاجتك، ولا يصلُ فيه مكروهٌ إليك، وإياك أن يكون مَثَلُك مثل العُلجوم الذي أراد قتل السرطان فقتل نفسه، قال الغراب: وكيف كان ذلك؟ قال ابن آوى: كان عُلجوم مُعشَّشًا في أجَمَة مُخصِبة كثيرةِ السمك، فعاش هنالك ما عاش، ثم هرِم فلم يستطع الصيد، فأصابه جوع وجَهد، فالتمس الحِيَل وقعد مفكِّرًا حزينًا، فرآه سرطان من بعيد، فلمَّا رأى حاله عرف ما به، فأتاه فقال له: ما لي أراك كئيبًا حزينًا؟ قال العُلجوم: وكيف لا أكتئب وأحزن، وإنما كان معاشي من السمك ههنا وهنَّ كثير، وإني رأيت اليوم صيَّادَيْنِ أتيا مكاننا هذا، فقال أحدهما لصاحبه: إن ههنا سمكًا كثيرًا أفلا نصيده؟ فقال صاحبه: إني عرفت أمامنا مكانًا فيه سمك أكثر منه، فأنا أحب أن نبدأ به ثم نرجع إلى ما ههنا فنفنيه، وقد علمتُ أنهما لو فرغا من هناك رجعا إلينا فلم يَدَعا في هذه الأجمة سمكةً إلَّا صاداها، فإذا كان ذلك فإن فيه هلاكي وموتي، فانطلق السرطان إلى جماعة من السمك فأخبرهنَّ بذلك، فأقبلن إلى العُلجوم وقُلن: أتيناك لتُشير علينا، فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوِّه، إذا كان ذا رأي في الأمر الذي يَشْرَكه فيه، وأنت ذو رأي، ولك في بقائنا صلاح، فأشِر علينا برأيك، قال العُلجوم: أمَّا مُكابرة الصيادَيْنِ وقتالهما فليسا عندنا ولا نطيقهما، ولا أعلمُ حيلة إلَّا أني قد عرفت مكانًا كثيرَ الماء والخُضر، فإن شئتنَّ فانتقلن إليه، فقلن له: ومن يمُنُّ علينا بذلك؟ فقال: أنا، وجعل يحمل منهن اثنتين في كل يوم، ينطلق بهما إلى بعض التلال فيأكلهما.

ثم إنَّ السرَطان قال له: إني قد أشفقتُ مما حذَّرتنا، فلو ذهبتَ بي فاحتمله حتى دنا من المكان الذي كان يأكلُهنَّ فيه، فلمَّا بَصُر بعظامهن مجموعة تلوح، عرف أنه هو صاحِبُهُن وأنه يريد به مثلهن، فقال: إذا لقي المرء عدوَّه في المواطن التي يعلم أنه هالِكٌ فيها، فهو حقيقٌ أن يقاتِل كرَمًا وحِفاظًا، فأهوى بكلاليبه على عُنُقِ العلجوم فعصره، فوقع إلى الأرض ميتًا، ورجع السرطان إلى السمك فأخبرهن.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لتعلم أنَّ بعض الحِيَل مُدَمِّر على صاحبه مُهلِك له، ولكن انطلِق فالتمس حَلْيًا، فإذا ظفرت به فاخطفه، ثم طِر به — وأصحابُه ينظرون إليك حيث لا تفوتُهم فإنهم سيطلبونك — حتى تنتهي به إلى جُحر الأسوَد فترمي به عليه.

فحلَّق الغُراب طائرًا، فإذا بجارية قد ألقت ثيابها وحُلِيَّها وهي تغتسل، فأهوى فأخذ عِقدًا نفيسًا، وحلَّق به طائرًا حيثُ يراه الناس حتى رماه قريبًا من جُحر الأسود، فأتى الناسُ وأخذوا الحلي، ورأوا الأسوَد نائمًا على باب جُحره فقتلوه.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل لتعلم أنَّ الاحتيال ربما أجزى ما لا تُجزي القوة.

قال كليلة: إنَّ شتربة لو لم يجمع مع شِدَّته رأيًا كان كذلك، ولكنه قد أُعطيَ مع ما ذكرتَ فضلًا نبيلًا وقِسمًا جسيمًا، قال دمنة: إنَّ شتربة لعلَى ما وصفتَ، ولكنه بي مُغتر، فأنا خليقٌ أن أصرعه كما صرعتِ الأرنبُ الأسدَ. قال كليلة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أنَّ أسدًا كان في أرض مُخصِبة كثيرة الوحوش والماء والمرعى، وكان لا ينفَعُهن ما هنَّ فيه من خوفِهن من الأسد، فائتمرن فيما بينهُنَّ، وأتينه فقلن له: إنك لا تُصيبُ منَّا الدابة إلَّا بعد تعبٍ ونَصَب، وقد اجتمعنا على أمرٍ لنا ولك فيه راحة، إن أنت أمَّنتنا فلم تُخِفنا، فقال: أنا فاعل، فقلن: نُرسِل إليك لغَدائك كل يوم دابة منَّا، فرضيَ بذلك وصالحهُنَّ عليه، ووفَى لهنَّ بما أعطاهن من نفسه، ووفَيْنَ له به، ثم إنَّ أرنبًا أصابتها القرعة فقالت لهُنَّ: أيُّ شيء يضرُّكُنَّ إن أنتُنَّ رَفَقْتُنَّ بي فيما لا يضُرُّكُنَّ، وأُرِيحكُنَّ من الأسد؟ فقلن لها: وما ذلك؟ قالت: تأمُرْنَ من يذهب معي ألَّا يتبعني لعلِّي أبطئُ على الأسد حتى يتأخر غداؤه فيغضب لذلك، ففعلن بها ما ذكرته، وانطلقت مُتَّئدة حتى جاءت الساعة التي كان يتغدَّى فيها، فجاع الأسد وغضب وقام عن مربضه يمشي وينظر، فلما رآها قال: من أين جئت؟ وأين الوحوش؟ فقالت: من عِندهُنَّ جئتُ، وهُنَّ قريب، وقد بعثن معي بأرنب، فلمَّا كنتُ قريبًا منك، عَرَض لي أسد فانتزعها مني، فقلتُ: إنها طعام الملك فلا تَغصِبنَّه، فشتمك وقال: أنا أحقُّ بهذه الأرض وما فيها منه، فأتيتُك لأخبرك، فقال: انطلقي معي فأرينيه، فانطلقت به إلى جُبٍّ صافي الماء، فقالت: هذا مكانه وهو فيه، وأنا أفرَق منه، فاحملني في صدرك،[٢٢] فحملها في صدره ونظر في الجُبِّ فإذا هو بظلِّها وظلِّه، فوضع الأرنبَ من صدره، ووثب لقتال الأسد في الجبِّ وطلبه فغرِق، وانفلتت منه الأرنب ورجعت إلى سائر الوحوش فأعلمتهُنَّ بخبره.

[٢٢] جملة «وأنا أفرق منه» مأخوذة من شيخو لتصحيح سياق الكلام، وعبارة شيخو: «هذا مكان الأسد وأنا أفرق منه إلَّا أن تحملني في حضنك فلا أخافه حتى أريكه.»

قال كليلة: إن قدرتَ على هلاك شتربة في غير مشقة تدخلُ على الأسد فافعل، فإنَّ مكانه قد أضرَّ بي وبك وبغيرنا من الجُند، وإن لم تستطع ذلك إلا بما ينغِّص الأسد، فلا تشترين ذلك بذلك، فإنه غدرٌ مني ومنك ولؤم وكفر.

ثم إنَّ دمنة ترك الدخول على الأسد أيامًا، ثم أتاه على خلوةٍ متحازنًا، فقال له الأسد: ما حبسك عني، منذ مدة لم أرَك، أذلك لخير؟ قال دمنة: حدث ما لم يكن الملك يريده ولا نحن، قال الأسد: وما ذلك؟ قال دمنة: هو كلام فظيع، قال الأسد: فأخبرني به، قال دمنة: إنه ما كان من كلام يكرهه سامعه، لم يكد يتشجَّع عليه قائله — وإن كان ناصحًا مشفقًا — إلا أن يثق بعقل المقول له، وإلا كان القائل خَرِقًا، فإنه إذا كان المقول له ذلك عاقلًا احتمله واستمعه وعرف ما فيه؛ لأنه ما كان فيه من نفعٍ فإنما هو للسامع، وأمَّا قائله فلا ينتفع به، بل قلَّما يسلم من ضرره، وأنت أيها الملك ذو فضيلة في الرأي، ورُجحان في الحلم، فأنا متشجِّع على أن أخبرك بما تكره، وأثقُ بأنك تعرف نصيحتي وإيثاري إياك على نفسي، وإنه ليعرض لي أنك غير مصدِّق بما أنا مُخبِرك به، ولكني إذا نظرت فذكرتُ أن أنفسنا — معشر السباع — مُعلقةٌ بنفسك، لم أجد بُدًّا من أداء الحق الذي يلزمني لك، وإن أنت لم تَسَلْني عنه، وخِفتُ ألا تقبله مني، فإنه من كتم السلطان نصيحته، والأطباءَ مرضَه، والإخوانَ رأيَه، كان قد غشَّ نفسه. فقال الأسد: وما ذلك؟ قال دمنة: حدَّثني الأمينُ الصادق عندي أنَّ شتربة خلا برءوس جُندك فقال لهم: قد عجَمتُ الأسد، وبَلَوتُ رأيه ومكيدته وقوته، فاستبان لي في كل ذلك ضعف، وإنه كائن لي وله شأن، وأنه لما بلغني هذا عرفت أن شتربة خئونٌ غادر، وقد عرف أنك أكرمته الكرامة كلها، وجعلته نظيرَ نفسك، فهو اليومَ يظنُّ أنه مثلك، وأنك إن زُلتَ عن مكانك صار له مُلكك، فهو لا يَدَعُ جُهدًا، فإنه كان يقال: إذا عَرَف الملك من الرجل أنه قد ساواه في الرأي والمنزلة والهيبة والمال والتبَع فليصرَعْه، فإنه إن لم يفعل كان هو المصروع، وأنت أيها الملك أعلمُ بالأمور وأبلغ فيها رأيًا، وأنا أرى أن تحتال للأمر قبل تفاقمه، ولا تنتظر وقوعه، فإنك لا تأمنُ أن يفوتك ثم لا تستدركه، فإنه كان يُقال: الرجال ثلاثة: حازمان وعاجز، فأحد الحازمَين من إذا نزل به البلاء لم يَدهَش، ولم يذهب قلبه شَعاعًا، ولم يَعْيَ برأيه وحيلته أو مكيدته التي بها يرجو المخرج والنجاة، وأحزُم من هذا المتقدم ذو العُدَّة، الذي يعرف الأمر مبتدَأً قبل وقوعه، فيُعظِمه إعظامه، ويحتالُ له حيلته كأنه قد لزمه، فيحسمُ الداء قبل أن يُبتلى به، ويدفع الأمر قبل وقوعه، وأمَّا العاجز فهو الذي لا يزال في التردد وتمنِّي الأمانيِّ حتى يُهلِك نفسه، ومَثَلُ ذلك مَثَلُ السمكات الثلاث. قال

الأسد: وكيف كان مَثَلُهنَّ؟ قال دمنة: زعموا أنَّ غديرًا كان فيه ثلاثُ سمكاتٍ: كيِّسة، وأكيسُ منها، وعاجزة، وكان ذلك المكان بنجوةٍ من الأرض، لا يكاد يقربه من الناس أحد، فلما كان ذات يوم مرَّ صيادان على ذلك الغدير مجتازَيْنِ، فتواعدا أن يرجعا إليه بشِباكهما فيصيدا الثلاث السمكات اللواتي رأياهنَّ فيه، فلمَّا رأتهما الحازمة ارتابت بهما، وتخوَّفت منهما، فلم تعرِّج أن خرجت من مدخل الماء إلى النهر، وأمَّا الكيِّسة فتلبَّثت حتى جاء الصيادان، فلمَّا أبصرتهما قد سدَّا مخرجها، وعرفت الذي يريدان بها قالت: فرَّطتُ، وهذه عاقبة التفريط، فكيف الخلاص وقلَّما تنجح حيلة المرهوق؟ ولكنَّ العالِم لا يقنطُ على كل حال، ولا يدعُ الأخذ بالرأي، ثم تماوتت وجعلت تطفو على وجه الماء منقلبة، فأخذاها فألقياها على الأرض غيْرَ بعيدٍ من النهر، فوثبت فيه فنجت منهما، وأمَّا العاجزة فلم تَزَلْ في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صاداها.

وأنا أرى لكَ أيها الملك معاجلةَ الحزمِ والحيلة، فتحسمُ الداء قبل أن تُبتلى به، وتدفع الأمر قبل نزوله.

فقال الأسد: قد فهمتُ ما ذكرتَ، ولكن لا أظنُّ شتربة يبغيني سوُءًا ولم أفعله به. قال دمنة: ألا إنه لا يحمله على ذلك إلَّا ذلك، فإنك لم تَدَع خيرًا إلا صنَعتَه به، ولا مرتبةً شريفةً إلا بلَّغته إياها، فلم يبقَ شيءٌ يسمو إليه إلا مكانُك، فإنَّ اللئيم الكفور لا يزالُ ناصحًا نافعًا حتى يُرفَع إلى المنزلة التي ليس لها بأهل، فإذا فُعِل ذلك به التمس ما فوقها بالغشِّ والخيانة، ولا يخدِم السلطان ولا ينصَح له إلا عن فَرَق أو حاجة، فإذا استغنى وأمِن عاد إلى أصله وجوهره، كذَنَبِ الكلب الأعقف لا يزالُ مُستقيمًا ما دام مربوطًا، فإذا حُلَّ عاد إلى ما كان عليه، واعلم أنَّه من لم يقبل من نُصحائه ما يثقُل عليه مما ينظرون له فيه لم يحمَد مَغَبَّة أمره ورأيه؛ كالمريض الذي يترك ما يَنعت له الطبيب ويعمِد لما تشتهي نفسه، وحقٌّ على وزير السلطان أن يبالغ في الحِضِّيضَى له على ما يزينه، ويكون فيه رشده وكفُّ الشين والْغَيِّ عنه، وخيرُ الأعوان أقلُّهم مصانعة، وأفضلُ الأعمال أحلاها عاقبة، وأحسنُ الثناء ما كان على أفواه الأحرار، وأشرف السلطان ما لم يخالطه بطر، وأيسَر الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرًا، وأفضل الأصدقاء من لم يُخاصِم، وأمثل الأخلاق أعونها على الورَع، وقد قيل: لو أن امرَءًا توسَّد النارَ وافترش الحيَّات كان أحقَّ بأن يَهنِئَه النومُ عليها منه إذا أحس من صاحبه الذي يغدو عليه ويروح بعداوةٍ يُريد بها نفسه، وأعجزُ الملوك آخذهم بالهُوَينا، وأشبههم بالفيل المغتلم

٤٦ ــ أبو سعيد سجادة (٢٨ : ٥)

لم يتح لنا أن نعرف على وجه التحقيق من هو المقصود بأبى سعيد هذا ، على أنا نذكر أن من بين الذين امتحنوا فى خلق القرآن رجلا يدعى بسجادة ، وفيه يقول المأمون فى كتابه إلى إسحاق بن إبراهيم : « وأما المعروف بسجادة ، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق ، فأعلمه أنه فى شغله بإعداد النوى ، وحكه ؛ لإصلاح سجادته ، وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيره ؛ ما أذهله عن التوحيد وألهاه »[١].

ومن هذا نرى كيف جاء هذا اللقب « سجادة » ، من هذا الأثر الذى كان يسمى « سجادة » .وفى هذه الفقرة ما يدلنا كيف كان المراءون يصنعون هذا الأثر . وكذلك يذكر الحصرى أنهم كانوا يصنعونه بدلك ما بين أعينهم بنواة وثوم ، ثم يعصبون الثوم وينامون[٢] وقد أورد فى هذا الموضع نادرتين طريفتين تتصلان بذلك .

وقد وردت هذه الكلمة « سجادة » فى شعر أبى نواس فى أبياته التى كتب بها إلى الفضل بن الربيع ، وقال فيها :

فادع بى ، لا عدمت تقويم مثلى ... فتأمل بعينك السجادة
لو رآها بعض المرائين يوماً ... لاشتراها بعدها للشهادة[٣]

٤٧ ــ المسجديون (٢٩ : ١)

هم ــ فيما نحسب ، وفيما تفيدنا إياه النصوص القليلة ــ قوم اتخذوا المسجد منتدى لهم ، وطال غشيانهم له ، فعرفوا به ، ونسبوا إليه . ولم يكونوا ــ فيما يبدو ــ من صنف واحد ، بل كانوا خليطاً من الناس ، منهم الشعراء ومنهم الرواة ومنهم مصطنعو الحكمة ، وقد كانوا يستطرفون من هذه الثقافات التى يزخر بها مسجد البصرة ، فكانوا لا يغرقون فى فن ، ولا يتقيدون بنوع من العلم ، وإنما يصيبون من هذا وذاك ، ثم يجلس بعضهم إلى بعض ، يتحدثون شتى الأحاديث ، ويتجاذبون أطراف الرأى فى مختلف المسائل .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ١٠ : ٢٩١ ، ط الحسينية المصرية .
(٢) جمع الجواهر ص ١٣٢ ، ط الرحمانية ، ١٣٥٣ هـ .
(٣) ديوان أبى نواس ص ٨٧ ط الحميدية ، تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٢٦ .

ويظهر أن هؤلاء المسجديين كان لهم أثر غير قليل فى التوجيه الأدبى لكثير من أدباء ذلك العهد ، ففى أخبار أبى نواس أنه لما شب وكبر صحب أهل المسجد والمجان[١] ، وأكبر الظن أن المقصود بأهل المسجد هم المسجديون . وكذلك الجاحظ كان مجلسه فى أول أمره إلى هؤلاء المسجديين[٢].

وقد كان بعض الشعراء يوصف بأنه مسجدى ، كما يقول المرزبانى عن أبى عمران موسى بن محمد السلمى أنه « بصرى مسجدى متوكلى »[٣] وهذا يدلنا على طابع خاص كان يعرف به الشعراء المسجديون . ومثل هذا نجده فى الرواية ، فقد ذكر الآمدى فيما يستكره من أشعار العرب هذا الشطر :

وسنا كسنيق سناءاً وسنا

ثم قال : « ولم يعرف الأصمعى هذا . وقال أبو عمرو : وهو بيت مسجدى ، أى من عمل أهل المسجد »[٤] ومن هذا نرى بعض الاتجاه الذى كان يتجهه المسجديون .

٤٨ ـ المكوك والدرهم والقيراط والحبة (٣٠ : ١٢ ـ ٣١ : ٧)

المكوك معيار يكال به ، وهو ـ كما يقول صاحب القاموس ـ مكيال يسع صاعاً ونصفاً ، أو نصف رطل إلى ثمان أواق ، أو نصف الويبة ، إلخ التقديرات التى ترجع فى اختلافها إلى اختلاف الزمان والمكان . والأصل فى كلمة المكوك أنها طاس يشرب به .

وأما الدرهم فمعرب كما يقول الجواليقى . وقد تكلمت به العرب قديماً ، إذ لم يعرفوا غيره . قال الشاعر :

وفى كل أسواق العراق إتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم[٥]

وقد ذهب الأب أنستاس مارى الكرملى إلى أنه معرب عن « دراخمى » اليونانية [٦]

وقد ذكر المقر يزى أن الدرهم كان أول أمره نوعين : كبير وصغير ، وقد كان

---

(١) أخبار أبى نواس لابن منظور ١ : ٦ ، ط الاعتماد ، ١٩٢٤ م .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١١٢ ، ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ .

(٣) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٧٩ ، ط القدسى ، ١٣٥٤ هـ .

(٤) الموازنة بين الطائيين ص ١١٦ .

(٥) المعرب ص١٤٨ ط دار الكتب المصرية . والشاعر هو جابر بن حنى الثعلبى ، أحد شعراء المفضليات.

(٦) النقود العربية وعلم النميات ، ص ٢٤ ، المطبعة العصرية ، ١٩٣٩ .

الكبير يسمى الدرهم البغلى ، وهو فارسى ، والصغير هو الدرهم الطبرى . وقال إن الناس كانوا قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار ، فعمد إلى إصلاح هذه الحال ، فوزن الكبير فإذا هو ثمانية دوانق ، ووزن الصغير فإذا هو أربعة ، فوحدهما ، وجعل الدرهم ستة دوانيق[١] . وذلك الوضع الأخير للدرهم هو الذى ذكره صاحب القاموس فى مادة (م ك ك) .

وأما القيراط فهو نصف الدانق ، أو هو جزء من اثنى عشر جزءاً من الدرهم .

وأما الحبة فهى ربع قيراط ، أو هى جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من الدرهم .

وقد ذكر المقريزى أن الدانق ثمان حبات وخمسا حبة من حبات الشعير المتوسطة التى لم تقشر ، وقد قطع من طرفيها ما امتد ، ثم ذكر مرة ثانية أن زنة الحبة مائة من حب الخردل البرى المعتدل .

٤٩ ـ الفانيذ (٣١ : ٩)

الفانيذ ـ كما فى القاموس ـ ضرب من الحلواء معروف ، معرب بانيد . ولم يذكره الجواليقى ولا الخفاجى ، وذكره أدى شير فقال : « الفانيذ معرب بانيد ، وهو نوع من الحلواء ، يصنع من السكر ودقيق الشعير والترنجبين » ؛ ثم قال عن الترنجبين إنه تعريب ترنكبين « طل حلو أكثر ما يسقط بخراسان وما وراء النهر ، ويجمع كالمن » . ويقول العلامة لسترنج فى فصله عن مكران إن أهم غلاتها هو قصب السكر ونوع خاص من السكر الأبيض يعرف عند العرب بالفانيذ (من الكلمة الفارسية : بانيد)[٣] .

٥٠ ـ النشاستج (٣١ : ١٠)

النشاستج هو النشا ، كما قال الجوهرى ، « فارسى معرب حذف شطره تخفيفاً ، كما قالوا للمنازل منا »[٤] وقال أدى شير فى تفسير هذه الكلمة : « ما يستخرج من الحنطة إذا نقعت حتى تلين ومرست حتى تخالط الماء وصفيت فى مناخل وجففت .

---

(١) النقود الإسلامية ص ٣ ، ٩ ، ١٠ ط الجوائب .

(٢) انظر ـ فوق هذا ـ البحث الذى كتبه M.H. Sauvaire فى المجلة الأسيوية *Journal Asiatique* (سنة ١٨٨٤ جزء ٣) تحت عنوان : Numismatique et Métralogie Musulmanes

(٣) *The Lands of the Eastern Caliphate*, P. 329. Cambridge, 1905.

(٤) شفاء الغليل ص ١٩٩ .

فارسيته " نشاسته" . والكردى " نشا " ولعل الكلمة آرامية الأصل . »

وقد ذكر الجاحظ كلمة النشاستج فى سياق الكلام عن فضل الكتب ومآثر المتقدمين فقال : « ولهم صب الزردج ، واستخراج النشاستج»[١].

٥١ ــ المرقشيثا (٣٢ : ٩)

هو الاسم الذى كان يطلقه علماء الكيمياء فى القرون الوسطى على بعض المعادن الكبريتية التى تقدح النار . ويقابله فى اليونانية كلمة (بوريطس pyrites) وهى تعنى حجر النار .

وقد ذكر الأب أنستاس مارى الكرملى أنها « أرمية الأصل (كيماقا شيثا) أى الحجر القاسى أو الصلب أو الصلد ثم أقحمت الراء بين الميم والقاف لتسهيل النطق بها (والراء من حروف الذلاقة) فصارت إلى ما ترى» [٢] .

وقد جاء ذكره فى كتاب الأحجار لأرسطاطاليس ترجمة لوقا بن إسرافيون بما يلى :

« حجر مرقشيثا : المرقشيثا ألوان كثيرة ، منها الذهبية ، والفضية ، والنحاسية . هذه ألوانه . فإذا كلس وحرق حتى يصير مثل الدقيق دخل فى الصنعة ، وإن ألقى مع يسير من الكبريت فى البوطقة خلص الذهب . وإذا حك الحديد المسقى بالمرقشيثا قدح النار »[٣]

٥٢ ــ زبيدة حميد (٣٥ : ١)

صيرفى بصرى كبير ، يملك مائة ألف دينار ، ويستخدم العديد من الغلمان . ، كما يؤخذ من حديث الجاحظ عنه هنا . وقد عرض له مرة أخرى فى سياق الحديث عن تفاوت الناس فى التأثر بالخمر فقال : « وكان عقل زبيدة بن حميد إذا شرب عشرة أرطال ، وبين عقله إذا ابتدأ الشرب مقدار صالح »[٤].

ولعله ابن « حميد بن القاسم الصيرفى » ، وكان صيرفياً تاجر رقيق فى أيام المنصور .

---

(١) الحيوان ١ : ٨٢ .

(٢) مجلة لغة العرب ٥ : ١٠٤ ــ ١٠٥ .

(٣) كتاب الأحجار لأرسطاليس ترجمة لوقا بن إسرافيون ص ١١٢ ط هيدلبرج ١٩١٢ م . وانظر كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ٤ : ١٥٢ ط مصر ١٢٩١ هـ .

(٤) الحيوان ٢ : ٢٢٧ ، ط مصطفى البابى الحلبى .

كما يؤخذ مما ذكره الجهشيارى[١] ، وكذلك كان زبيدة — فيما يبدو — صيرفياً تاجر رقيق . وقد جاء ذكره أيضاً فى حوادث سنة ١٥٧ ، فيما يقول الطبرى : « وفيها عقد المنصور الجسر على باب الشعير ، وجرى ذلك على يد حميد بن القاسم الصيرفى »[٢].

٥٣ — أبو الأصبغ بن ربعى (٣٥ : ١٠)

هكذا جاء هنا بالغين المعجمة ، وفى النصوص الأخرى التى بين أيدينا باللعين المهملة[٣] وقد سمى بهذا وذلك .

كان من أصحاب الجاحظ الذين يروى عنهم ، وأحسب أنه من بنى ربعى الذين يذكرهم الجاحظ فى سياق يدل على أنه كان يعتاد منزلهم[٤] . واسمه « ذؤيب » على ما جاء فى أخبار أبى نواس . وهو هذلى بصرى . وقد كان — فيما يظهر من أخباره القليلة — من فتيان البصرة الظرفاء الخلعاء . وفى الخبر الذى أورده ابن منظور عنه وعن أصحابه ما يدل على ذلك . ومن أصحابه صباح بن خاقان المنقرى ، ويحيى الأرقط ، وعيسى ابن غصين ، وابن الكهل مولى بنى تميم ، وعبيد العاشقين . وقد ذكره أبو نواس فى قصيدة مدح بها هؤلاء فقال :

وابن ربعى الفتى السمح الجواد الراحتين[٥]

٥٤ — الجوارشن (٣٥ : ١٣)

تجىء هذه الكلمة بالنون كما هنا ، وخالية منها ، كما ذكرها أدى شير فى كتابه ، وقال إنها عند الأطباء نوع من الأدوية ، تعريب كَوارش ومعناه الهضام . وهذا الذى ذكره أدى شير يوافق ما ذكره التهانوى فى كشاف اصطلاحات الفنون[٦] ، كما يساير سياق الحديث فى هذا الموضع من البخلاء [٦]

---

(١) الكتاب والوزراء ص ٦٨ ط الصاوى .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٩ : ٢٨٨ ، ط الحسينية المصرية .

(٣) البيان والتبيين ٣ : ١٩٣ ط ١٣٣٢ هـ ، الحيوان ٣ : ١٠٩ ، ٢٥٦ ، أخبار أبى نواس لابن منظور ص ٤٩ .

(٤) الحيوان ٢ : ٢١ .

(٥) ديوان أبى نواس ص ١٥٦ ط الحميدية ١٣٢٢ هـ .

(٦) ١ : ٣٢٠ ط كلكتا . الهند .

ولكن هذه الكلمة تعرضت ، فيما بعد ، لنوع من التوسع اللغوى . فنسى فيها هذا المعنى ، ولم يلحظ فيها إلا بعض الصفات الظاهرة لما تطلق عليه . فأصبحت تطلق فى القرون المتأخرة على ما عبر عنه داود الأنطاكى ، فى القرن العاشر ، بقوله : « والجوارشات هنا عبارة عن الدواء الذى لم يحكم سحقه ، ولم يطرح على النار ، بشرط تقطيعه رقاقاً »[١] وبذلك صرنا نرى هذه الكلمة تطلق على أنواع من الأدوية ، منها الهاضوم وغيره .

٥٥ ـ البرنكان (٣٦ : ٨)

فسره صاحب القاموس بأنه الكساء الأسود ، ونقل الجواليقى عن ابن دريد أنه الكساء مطلقاً ، وأنه بالفارسية [٢] . وقد جاءت الكلمة فى الشعر ، فيما أنشد الجاحظ [٣] .

إنى ، وإن كان إزارى خلقـاً وبرنـكانى سملا قد أخلقـا ،
قد جعل الله لسانى مطلقاً

وقد كتب عنه العلامة دوزى Dozy فصلا فى كتابه « معجم الملابس » [٤] . ولكن معظم كلامه عنه كما كان مستعملا فى العصور المتأخرة ، فى بلاد المغرب ، اعتمادا على كلام الرحالين ، أمثال Diego de Haedo، وهو يصفه بأنه كساء كبير ، يلف الجسم كله ، يستعمله الرجال والنساء . وغالب الظن أن شكله العام لم يتغير كثيراً عن هذه الصورة البدوية ، إلا أن تكون الحياة المتحضرة فى البصرة حورته قليلا .

٥٦ ـ ليلى الناعطية (٣٧ : ١)

ذكرها الجاحظ فى البيان على أنها من نساء الغالية[٥] ، كما جاء ذكرها فى قصيدة صفوان الأنصارى فى الرد على بشار ، فيقول [٦] :

أتجعل ليلى الناعطية نحـلة وكل عريق فى التنـاسخ والرد

(١) تذكرة ذوى الألباب ١ : ١٦٠ ط بولاق .
(٢) المعرب من الكلام الأعجمى ص ٥٦ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ١٤٤ ط مصطفى محمد ، ١٩٣٢ م .
(٤) *Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes*, p. 68-71.
(٥) ١ : ١٩٥ ط الفتوح الأدبية ، ١٣٣٢ هـ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ١٧ .

وأما « ناعط » التى تنسب آلبها ، فهى — كما ذكر ياقوت[١] — حصن فى رأس جبل بناحية اليمن ، قديم ، كان لبعض الأذواء . وقد ورد فى شعر امرئ القيس وأبى نواس . وقد ذكره الهمدانى بين ما ذكر من بقايا مآثر اليمن وقصورها ، وقال إنه أفضلها ، ووصفه بأنه مصنعة بيضاء مدورة منقطعة فى رأس جبل تلين ، وهو أحد جبال البون ، ثم مضى فى صفته وفى ذكر قصور ناعط وما جاء فيها[٢].

ولست أدرى — على التحقيق — وجه هذه النسبة . وليس يبعد أن تكون يمنيه الأصل ؛ فالتشيع غالب على اليمانية ، وقد كان الناعطيون من أصحاب على فى الكوفة ، وطائفة من طوائف جيشه بصفين .

٥٧ — جبل العمى (٣٨ : ١٦)

يقول فان فلوتن فى التعليق على هذا الموضع إنه ربما كان الشخص الذى ذكره أبو نواس فى شعره، على ما جاء فى الديوان (ط القاهرة ، ١٨٩٨) ص ١٨٤ : « ثقيل يقال له روح العمى (الغمر) ويلقب با لجبل . بصرى »[٣].

وليس يبعد هذا عندى . والديوان يثبت لأبى نواس فى هجاء « الجبل » هذا ، خمس قطع . ومن بين هذه القطع ما يدل على أنه كان يتعاطى صناعة الغناء ، وأنه كان يغنى لأبى نواس وصحبه فى لهوهم ومجالس أنسهم .

٥٨ — حكاية الكلام الملحون (٤٠ : ١ — ٤)

يقول الجاحظ هنا : « وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولا عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب، ويخرجه من حده ، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلى البخلاء وأشحاء العلماء ، كسهل بن هارون وأشباهه » . وهذا مذهب للجاحظ لعله كان أول من اصطنعه واجترأ

---

(١) معجم البلدان ٨ : ٢٣٩ ، ط السعادة ، ١٩٠٦ م . وانظر الفصل القيم الذى كتبه أبو محمد الحسن بن احمد الهمدانى فى كتابه الإكليل عن ناعط (٨ : ٤١ — ٤٦ ، ط السريان الكاثوليكية ، بغداد ، ١٩٣١ م) .

(٢) الإكليل لأبى محمد الهمدانى ٨ : ٤١ — ٥٢ ط السريان الكاثوليكية ، بغداد ، ١٩٣١ .

(٣) البخلاء (ط ليدن ص IX) Notes et éclaircissements,

(٤) ديوان أبى نواس، ص ١٥٥ — ١٥٦ ط الحميدية ١٣٢٢ هـ .

عليه فى كتبه ، دون أن يبالى فى ذلك لائمة المتحرجين وتنطس المتنطسين ، فقد كانت تحمله عليه نزعته الأدبية القوية التى اتخذت من حياة الشعب مادة لها ، تصور ألوانها المختلفة ، وتعبر عن اتجاهاتها ومناحيها ، والتى لم تكن تعبأ فى سبيل دقة التصوير وبلاغة التعبير بتلك القيود الشكلية إذا كان فيها ما يمنع من ذلك .

وقد عبر عن هذا المذهب فى غير موضع ، فيقول مثلا : « . . . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فاياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذى أردت له ، ويذهب استطابتهم إياها ، واستملاحهم لها »[1] . ويقول فى موضع آخر : « إن الإعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب . لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة . فإذا أدخلت على هذا الأمر — الذى إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التى فيه — حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل ، وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته »[2]. ويتحدث فى موضع ثالث عن التجاوب الضرورى بين اللفظ والمعنى ، وما يتصل منه بهذا الباب ، فيقول : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح فى موضع الإفصاح ، والكناية فى موضع الكناية ، والاسترسال فى موضع الاسترسال ، وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك وملهٍ ، وداخل فى باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الإعراب ، انقلب عن جهته . وإن كان فى لفظه سخف ، وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذى وضع على أن يسر النفوس يكربها ويأخذ بأكظامها »[3].

فالجاحظ كان يرى إذن أن الكلام هو الصورة النفسية المسموعة بكل ما فيها من ألفاظ معينة ، وهيئة فى الأداء خاصة . فالتحريف فيها إنما هو مسخ لهذه الصورة ، وإخراج لها عن أصل وضعها . ويظهر هذا فى النادرة أكثر ، ولهذا كان أكثر كلامه عنها . لأن النادرة غايتها الاضحاك ، وهو يعتمد على الشكل والهيئة إلى حد كبير .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٨١ .
(٢) الحيوان ١ : ٢٨٢ .
(٣) الحيوان ٣ : ٣٩ .

وقد تبع ابن قتيبة الجاحظ فى هذا المذهب فقال فى مقدمة عيون الأخبار : « وكذلك اللحن إن مر بك فى حديث من النوادر ، فلا يذهبن عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده ، لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها » . وشتان ما بين الجاحظ وابن قتيبة فى التقرير والتعليل .

٥٩ ـ أحمد بن خلف (٤١ : ١)

هو ـ كما يبدو من سياق الكلام فى هذا الفصل ـ أحد أصدقاء الجاحظ . وإذا كانت هذه الصداقة لم تجعله يتحرج فى وصفه بما وصفه به ، بعد أن عينه وسماه ، فلعله كان هو الذى يعنيه ، فى مقدمة هذا الكتاب : البخلاء ، بقوله : « ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً ، ورأيناه يتظرف به . ويجعل ذلك الظرف سلماً إلى منع شينه » .

وقد ورد هذا الاسم فى رسالة التربيع والتدوير ، إذ يقول الجاحظ ، مخاطباً أحمد ابن عبد الوهاب : « والله لئن رميتنى ببجيلة ، لأرمينك بكنانة ، ولئن نهضت بصالح بن على ، لأنهضن بأحمد بن خلف وبإسماعيل بن على »[1] ، فأكبر الظن أنه هو المعنى هنا .

٦٠ ـ المثلثة (٤١ : ٣)

ليس فى قواميس اللغة تفسير لمعنى هذه الكلمة يتفق مع السياق الذى جاءت فيه هنا . وهذا السياق يدل على أنها كانت تطلق على نوع من الحساء ، والحساء ـ كما يعرف به صاحب اللسان ـ طبيخ يتخذ من دقيق وماء ودهن ، وقد يحلى ، ويكون رقيقاً يحسى . ويقول الأستاذ داود الحلبى فى التعليق على هذا الموضع من مقالاته : « تصحيح أغلاط كتاب البخلاء» إن كلمة « المثلثة » تطلق الآن فى العراق على الحنطة بعد أن تدق ثلثى الدق الكامل بدون أن تسلق . وقد أورد بعض الأطعمة التى تتخذ منها كالكشكا ووصف طرائق صنعها[2] . ولكن ما هنا شىء آخر ، فلعل المراد حساء هذه المثلثة .

---

(١) مجموعة رسائل للجاحظ ص ١٢٦ ط التقدم .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى الجزء الثالث والرابع من المجلد العشرين (آذار ونيسان ١٩٤٥) ص ١٥٨ .

٦١ ـ الجرار المذارية (٤٥ : ١)

نوع من الجرار وصفه هنا بأنه يرشح الماء ، وجاء فى قطعة من شعر البحترى ما يدل على أن الجرار المذارية هى من الجرار الخضر ، وذلك حيث يقول فى رجل يكنيه بأبى الحسن، يعيره بها وبولايته على المذار :

ليس المذار بجالب لك سؤددا غير الجرار الخضر والكيزان
ولئن وليت فبالمصانعة التى قدمتها ، وشفيعك العريان[1]

وأما المذار التى تنسب إليها هذه الجرار فهى ـ كما يقول ياقوت ـ قصبة ميسان ، بين واسط والبصرة ، وبينها وبين البصرة أربعة أيام . وكانت معروفة بجرارها[2].

٦٢ ـ حديث خالد بن يزيد (٤٦ : ١)

خالد بن يزيد هذا هو أحد المكدين الذين مارسوا التكدية حياتهم ، ثم نزل البصرة ، فأجرى الجاحظ هذا الحديث على لسانه ، ليرسم به صورة عجيبة من حياة هذه الطائفة .

وليست التكدية عندهم مجرد السؤال والاستجداء ، كما قد تفيده هذه الكلمة بمعناها اللغوى الساذج[3] ، فقد أخذت معنى اصطلاحيًّا معقداً متعدد الوجوه ، كثير الدلالة . فأصبحت تتضمن معنى الاحتيال للمال بمختلف الوسائل والأساليب غير المشروعة ، من استخدام القوة والاستلاب بالعنف والغلبة ، إلى استغلال غفلة الجماهير وغرائز الرحمة والرقة .

وقد وجد الجاحظ فى هذا النوع فى الحياة العجيبة موضوعاً أدبيًّا طريفاً ، يثير دهشة القارئ ، فأجلس هذا الرجل ، خالد بن يزيد ، فى أحد مجالس البصرة ، وأمر عليه سائلا يسأله ، فغلط بدرهم أعطاه له ، ثم فطن فاسترده ، وأعطاه فلساً بدله . فأنكر جلساؤه عليه ذلك .

وهنا أوجد الجاحظ المناسبة التى جعلته يتكلم عن نفسه ، وساق المقدمة التى تمهد

---

(١) ديوان البحترى ٢ : ٣١٦ ، ط هندية ، القاهرة ١٩١١ م .
(٢) معجم البلدان ٧ : ٤٣٣ ط السعادة ، القاهرة ١٩٠٦ م .
(٣) انظر شفاء الغليل للخفاجى ص ١٨٠ — ١٨١ .

لوصف حياة هذه الجماعة ، فجعل الرجل يتكلم ويقول : إن هذا السائل من مساكين الفلوس لا مساكين الدراهم ، وأنه يعرفه حق المعرفة بالفراسة ، وكيف لا يعرفه وقد كان وكان . . . وهكذا يأخذ فى الحديث عن نفسه وعن صور حياته ، وما كان له من الزعامة فى طائفته .

فإذا انتهى الجاحظ من التعريف به هذا التعريف الأولى ، انتقل بالحديث ناحية أخرى ، فأورد وصيته لابنه ، يوصيه فيها بحفظ المال والقيام عليه ، ويقص عليه ما قاساه فى جمعه من السفر الطويل ، ومعاناة المحن ، وملابسة الخدع ، وتعاطى أنواع الثقافة المختلفة ، والبطش ساعة البطش ، والحيلة ساعة الحيلة ، والصبر على ضروب التنكيل والتعذيب ، من الجلد والحبس والقيد . ويذكر له مشاركته للعصابات المختلفة من الثوار وقطاع الطرق ، ويمضى فى هذا الحديث الذى يصور حياة هذه الطائفة تصويراً دقيقاً جميلا ، كما يصور من ناحية أخرى صورة من الفساد الاجتماعى الذى أصاب كل شىء ، حتى أصاب ذمم الوكلاء وضمائر القضاة .

فإذا فرغ من إيراد هذه الوصية أخذ فى منحى آخر يزيد الصورة تفصيلا وتجلية ، فأخذ يفسر ما جاء فى هذا الحديث من كلمات اصطلاحية أطلقت على بعض أنواع الاحتيال التى تجيدها هذه الطائفة .

ويجدر بنا أن ننبه هنا إلى أن الجاحظ لم يقتصر على هذا الحديث فى تصوير هذه الطائفة ، بل قد تناوله فى موضع آخر ، فى فصل نقله عنه البيهقى[1] ، يذكر فيه محاسن التكدية ، وقد ساقه على لسان أحد المكدين ، كما أورد فصلا آخر عدد فيه أصناف المكدين ، مشتملا على بعض ما جاء فى البخلاء[2] .

ويتبين من حديث الجاحظ هذا أنه يتحدث عن طائفة متحدة فى روحها ، وفى نزعتها ، وفى أساليب حياتها ، وفى أنها رحالة دائمة الرحلة والمهاجرة ، حتى ما يكاد القارئ يملك نفسه من تذكر تلك الطائفة التى يسميها البعض « النور » ، كما تسمى بالغجر والبوهيميين والجيتان[3] ، وغير ذلك من الأسماء التى تختلف باختلاف منازلهم التى ينزلونها . وكذلك نجد هذه الطائفة التى عقد لها الجاحظ هذا الحديث ، وسماها بالمكدين ، تختلف أسماؤها . فتسمى هنا بالزط ، وهناك بالزواقيل ، إلى غير ذلك من

---

(١) المحاسن والمساوى ص ٦٢٢ — ٦٢٤ . (٢) المحاسن والمساوى ص ٦٢٤ — ٦٢٧ .

(٣) gitane أو gitano تطلق فى الإسبانية على البوهيميين ، ويلاحظ كأن هناك صلة بين هذه الكلمة وبين كلمة زط التى هى كلمة جت الهندية .

الأسماء ، كما أطلق عليها بعد ذلك اسم الساسانيين أو بنى ساسان .

فإذا افترضنا أن هذه الفرقة هى طائفة من النور المنتشرين فى أنحاء الأرض ، وجدنا هذا الفرض قريباً ، ووجدنا الأدلة والقرائن متظاهرة على تأييده . فأول ما يعرف به النور هو الرحلة الدائمة ، والسعى المستمر فى مناكب الأرض ، وهؤلاء كذلك كما يؤخذ من كلام الجاحظ هنا ، وفيما نقله البيهقى ، ومن صفات الساسانيين فى الآثار الأدبية الأخرى ، وسنشير إليها بعد . كما أن وسائلهم فى الحياة هى وسائل النور من المخادعة ، والحيلة فى اجتلاب المال واستلابه ، غير متحرجين .

ويصفهم الجاحظ بأنهم عرفوا « خدع الكاهن ، وتدسيس العراف ، وإلى ما يذهب الخطاط والعياف ، وما يقول أصحاب الأكتاف ، وعرفوا التنجيم والزجر والطرق والفكر » وكذلك نعرف عن النور أن هذا أمر شائع بينهم ، وأن هذه الثقافة الخاصة بالغيبيات من التنجيم والزجر وما إليه من أخص ثقافاتهم .

وبعد هذا كله لا يكاد الجاحظ يذكر شيئاً عن هؤلاء المكدين ثم لا نجده فيما نعرف من أخلاق الغجر أو البوهيميين ومذاهبهم فى الحياة ، مع مراعاة اختلاف الزمان والمكان ، وما توحى به الظروف المختلفة والملابسات المتفاوته .

على أن هناك شاهداً آخر يؤيد هذا الفرض الذى نفترضه ، وهو يرجع إلى الموطن الأصلى للنور ، فقد ذهب كثير من الباحثين إلى أنهم أخلاط من القبائل الآرية المنتشرة بين الهند وإيران، وقد لاحظ بلاس pallas — كما ذكر الأب أنستاس مارى الكرملى فيما كتب عن النور[1] — أن اللغة التى يتكلمها النور تضاهى كل المضاهاة لغة هنود المولتان ، وقد اتفق له أن يتصل بجماعة منهم فى استراخان ، ويتعرف إليهم . ونحن من جانبنا نرجح إلى حد كبير أن هذا الأصل هو أصل طائفة المكدين التى ذكرها الجاحظ . فقد ذكر منهم الزط ، وهى — كما نعرف — تحريف كلمة « چت » اسم لاحدى القبائل النازلة على حدود الهند ، كما ذكر منهم القفص ، وهم من جبال كرمان ، كما ذكر البشارى[2] . وكثير من البلاد التى ذكرت فى سياق حديث الجاحظ على أنها من مجالاتهم من هذه المنطقة التى قالوا إنها موطن النور ، كالمولتان التى أشار إليها بلاس ، وقيقان ، وهى على حدود الهند ، وقطر ، وهى بين شيراز وكرمان .

وعبارة أخرى جاءت فى حديث خالد بن يزيد تشير إلى هذا الأصل الهندى ، وهى

---

(١) مجلة المشرق ، سنة ١٩٠٢ ص ٩٦٩ .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٤٧٠ — ٤٧١ ط بريل ، ١٩٠٦ م .

قوله : « ولو كنت عندى مأموناً على نفسك لأجريت الأرواح فى الأجساد وأنت تبصر ... » فهذه عبارة أشبه بالعقلية الهندية المتعلقة بأسرار الحياة ، وغوامض الأرواح ، ومساتير الوجود .

ننتقل بعد هذا إلى دليل آخر أقطع فى الدلالة على الصلة بين هؤلاء المكدين ، وبين طائفة النور ، وهو دليل يقدمه إلينا الأصل المخطوط الذى اعتمدنا عليه فى هذه النشرة ، فى هذه العبارة : « قالوا : وإنك لتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا أعرفهم وأنا كنت كاجار فى حداثة سنى ؟ » ؛ والدليل هو فى كلمة « كاجار » التى جاءت هكذا فى الأصل فجعلها « فان فلوتن » فى نشرته « كاخان » على غير هدى . وما كلمة « كاجار » هنا إلا صورة من كلمة « غجر » التى تطلق الآن على النور كاسم من أسمائهم الكثيرة ، كما ذكر ذلك عرضاً الأب أنستاس مارى الكرملى فى بحثه الذى تقدمت الاشارة إليه ، وكما نعرض لذلك فى هذه التعليقات بعد قليل .

وإذن فنحن بهذه الشواهد المتعددة نستطيع أن نصحح هذا الفرض الذى افترضناه عن طائفة المكدين ، ونستطيع أن ندرسها على هذا الأساس درساً يمكن أن يكشف لنا عن كثير منها .

وقد ذكر ياقوت فى معجمة خالد بن يزيد هذا ، كأنه شخصية تاريخية ، وترجم له ترجمة أخذها عن هذا الفصل الذى كتبه الجاحظ فى البخلاء ، ولم يزد شيئاً ، ولم يغير فى العبارة تغييراً كبيراً . ثم قال : « ومن لطائفه وصيته لابنه عند موته ، وفيها لطائف وغرائب » . ثم أورد طرفاً من هذه الوصية ، كما جاءت فى البخلاء ، وقال إنها مجتمعة فى كراسة[1] .

وعندى أن هذا من صنيع الوراقين ، تحايلا على الكسب . فاقتطعوا هذا الحديث من كتاب البخلاء ، ونسخوه على حدة فى كراسة لطيفة الحجم ، ليكون أروج لها . وقد رآها ياقوت ، فاعتبرها بهذا الاعتبار ، ولم يعرف أنها قطعة من آثار الجاحظ الأدبية التى مثل فيها هذه الناحية الغريبة من الحياة تمثيلا دقيقاً ، فافتتن بها الناس . واستغل الوارقون ذلك ، فأخذوا فى انتساخها وتقديمها على أنها من حديث شيخ المكدين نفسه ، زعماً منهم أن ذلك يكون أروع لها ، وأشد فى افتتان الجمهور بها ، وإقباله عليها .

على أنه يظهر أن تعقد الحياة فى القرن الرابع ، وشيوع المذاهب المختلفة فيه ، والغفلة التى أطبقت على العامة من ناحية الدين فى ذلك العهد ، كما يصورها كتاب ككتاب

(١) معجم الأدباء ١ : ٤٢ — ٤٧ .

نشوار المحاضرة للتنوخى ، قد مكن لهذه الطائفة أن يمتد نفوذها ، ويقوى سلطانها ، وتتسع ميادينها . وقد سميت فى ذلك العهد اسما اصطلاحيًّا جديداً ، هو « الساسانيون » . وقد ظهر ذلك فى الآثار الأدبية فى القرن الرابع وما بعده ظهوراً بيناً ،وحسبنا ما نراه فى مقامات بديع الزمان والحريرى .

وقد كتبت مؤلفات أخرى تناولت هذه الناحية . بل لقد أصبحت حيل الساسانيين من موضوعات العلم ، وقد كتب حاجى خليفة فصلا تحت عنوان : « علم الحيل الساسانية » قال فيه :

« ذكره أبو الخير من فروع علم السحر ، وقال : علم يعرف به طريق الاحتيال فى جلب المنافع ، وتحصيل الأموال . والذى يباشره يتزيا فى كل بلدة بزى يناسب تلك البلدة . بأن يعتقد أهلها فى أصحاب ذلك الزى . فتارة يختارون زى الفقهاء وتارة يختارون زى الوعاظ ، إلى غير ذلك . ثم إنهم يحتالون فى خداع العوام بأمور تعجز العقول عن ضبطها »[١] .

ثم ذكر بعد ذلك حيلة من حيلهم فى هذا .

وهناك غير هذه الآثار النثرية آثار شعرية . وقد ذكر بعضها الثعالبى ، منها القصيدة الساسانية لأبى دلف الخزاعى[٢] ، وقد جاء فى هذه القصيدة كثير من الكلمات الاصطلاحية التى ذكرها الجاحظ .

وقد نهج على هذا النمط بعض الشعراء المتأخرين الذين جعلوا المعارضة باباً من أبواب الفن كصفى الدين الحلى ، فإن له أيضاً قصيدة سماها « القصيدة الساسانية » . وهى محفوظة فى دار الكتب المصرية[٣].

٦٣ ـ كاجار (٤٦ : ٨)

هكذا اقترحنا هذه الكلمة تصحيحاً لكلمة « كاحار » التى جاءت فى المخطوطة ، وافترض فان فلوتن فى نشرته أنها محرفة عن كلمة « كاخان » التى وضعها موضعها ، وقد طرد هذا الفرض ، فحول كلمة « كاغان » فى ص ٥٢ س ١٩ فجعلها « كاخان » ،

---

(١) كشف الظنون ١ : ٤٥٥ – ٤٥٦ ، ط إستنبول ١٣١١ هـ .

(٢) اليتيمة ٣ : ٣٢٣ إلخ ، ط الصاوى .

(٣) ٣٢٨٧ أدب ، ٦٦٨ مجاميع .

إذ لم يستقيم له أن تكون محرفة عن «كاغانى» القريبة منها ، لما ساق الجاحظ فى تفسيرها ، مما يخالف تفسير كلمة « كاغان »[١].

وأساس هذا الفرض هو مجرد الاستحسان الصادر عن شكل الحروف ، والجمع بين الكلمتين : « كاحار » و « كاغان » فى صورة واحدة . وإن كنا لا نجد معنى لكلمة «كاخان» التى افترضها ، يدل على هذا الفرض أو يرجحه . والمعنى الذى ذكره الجاحظ لكلمة «كاغان» التى جعلت « كاخان » غير متعين .

فأما الصورة التى اقترحناها فهى أقرب صورة ممكنة من الصورة الخطية ، إذ ليس بين الصورتين إلا الإعجام الذى كثيراً ما يغفله النساخ . وهذا إلى أن كلمة « كاجار » هى الكلمة التى تلائم موضعها فى سياق الكلام كل الملاءمة . فهى كلمة كانت تطلق على بعض القبائل التركية الرحالة الضاربة فى الأرض ، من المصدر التركى « قاچمق » بمعنى الهرب ، وقد دخلت هذه الكلمة فى اللغة الفارسية ، وصنع منها المصدر الفارسى « قچانيدن » . وقد سبق أن قلنا إن كلمة « غجر » ليست إلا صورة منها .

٦٤ ـ المستعرض (٤٦ : ١١)

كلمة من الكلمات الاصطلاحية لطائفة المكدين . وهذه الكلمات لا تنسب إلى لغة واحدة أو لهجة معينة ، بطبيعة الحياة المتنقلة التى تحياها هذه الطائفة . والذى يبدو من وضع هذه الكلمة وبنائها أنها عربية بل هى عربية بدوية ، ففيما نعرف من استعمالاتها ، نجد أنها مستعملة عند طائفتين : الخوارج واللصوص ، وكلتا الطائفتين خرجت من البادية .

فمن استعمالاتها عند الخوارج ما جاء فى ذكر قطرى بن الفجاءة ، أحد خطباء الأزارقة وفرسانهم ورؤسائهم أنه « كان يدين بالاستعراض والسباء وقتل الأطفال »[٢] وكذلك أورد المبرد مثل هذا فى حكاية مذهب نافع بن الأزرق « فى البراءة والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال »، وفى قول أبى بيهس : « الدار دار كفر ، والاستعراض فيها جائز . وإن أصيب من الأطفال فلا حرج »[٣] . وقد عرض أبو على القالى لتأويل هذه الكلمة بقوله : « ويقال خرجوا يضربون الناس عن عرض ، يريدون عن شق وناحية .

---

(١) البخلاء ص ٥٢ .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٣٤ .

(٣) الكامل للمبرد ٣ ، ١٧٣ .

لا يبالون من ضربوا ، ومنه استعراض الخوارج الناس ، إذا لم يبالوا من قتلوا »[١].

فذلك هو الاستعراض فى لغة الخوارج ، وأما فى لغة اللصوص فيختلف قليلا عن هذا ، كما نرى فى قصة السمهرى ، أنه خرج مع بعض أصحابه من اللصوص ، فلقوا عون بن جعدة بين نخل والمدينة ، فقالوا له : العراضة ، أى : مر لنا بشىء . فقال : يا غلام ! جفن لهم ؛ فقالوا : لا والله ! ما الطعام نريد . فقال : عرضهم[٢].

فلعل هذا هو الأصل القريب فى كلمة « المستعرض » أى « طالب العراضة » ، ولا سيما إذ كانت من لغة اللصوص ، ومن هذه السبيل دخلت فى لغة المكدين ، وليس يمنع من هذا أن يتغير مدلول الكلمة شيئاً ما ، لأن هذا هو شأن الكلمات . وقد قال الجاحظ فى تفسير المستعرض إنه « الذى يعارضك وهو ذو هيئة ، وفى ثياب صالحة ، وكأنه قد هاب من الحياء ، ويخاف أن يراه معرفة . ثم يعترضك اعتراضاً ، ويكلمك خفياً »[٣] .

وقد ذكر المستعرض فى قصيدة أبى دلف ، فى قوله :

ومن يكحل من مستعرض دمعته تجرى

وقال الثعالبى فى تفسيره : « ومن يكحل : هو الذى معه قطنة مغموسة فى الزيت يمرها على عينيه لتدمع ، ويأخذ فى شكاية حاله ، واستعراض الناس فى مسألته وذكر قصته ، وأنه قطع عليه الطريق ، أو غصب على ماله . والمستعرضون أمهر القوم » .

فإذا صح الأصل الذى رأيناه لكلمة المستعرض ، فإنه يكون قد غاب عن الجاحظ والثعالبى ، فذكروا هذا الاشتقاق ، والتكلف ظاهر عليه[٤].

٦٥ ـ الكاغانى (٤٦ : ١٢)

ذكره الجاحظ فى الحيوان بقوله : « والكاغانى ، وهو الذى يتجنن ويتفالج فالج الرعدة والارتعاش ، فإنه يحكى من صرع الشيطان ، ومن الإزدباد والنفضة ، ما ليس عندهما ،

---

(١) الأمالى ١ : ١١٩ .

(٢) الأغانى ٢١ : ٧٥ .

(٣) البخلاء ص ٥٣ .

(٤) ومما يستطرف هنا مما لا بأس بذكره ما ذهب إليه الأستاذان الناشران للبخلاء بوزارة المعارف ، حين أخطأ القراءة ، فذهبا فى تأويل المستعرض مذهباً جديداً ، « وهو الذى ينظر إلى أقفية الناس » ، وبذلك جعلا استعراض الأقفية نوعاً من القيافة يلجأ إليه هذا الرجل ليتعرف حال الناس .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إذ (1) بعثه نبيا هاديا ورسولا داعيا إليه ، ودالاً عليه ، وحجة بين يديه ، صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما .

أما بعد أيّدك الله بتوفيقه ، وعصمك بتسديده ، فإنّي رأيت أن أصنع لك كتابا في الأدب والبلاغة والترسّل (2) والحروب والحيل والأمثال والعالم والجاهل ، وأن أُشْرِبَ ذلك بشيء من المواعظ وضروب من الحكم ، وقد وضعت من ذلك كتابا مختصرا موعبا [2 - و] شافيا ، وجعلته أصلا للعالم / الأديب والعاقل (3) الأريب مما أمكنني حفظه ، واطّرد لي تأليفه ، والله نسأله العون والتّأييد والتّوفيق والتّسديد ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم .

ذكر أنّ ثعلبا يقال له مرزوق ويكنّى أبا الصّباح أقام في واد لم يكن به غيره ، فعبر عليه زمان وهو في حسن الحال ، آمن السرَب ، رخيّ البال ، فمرّ به صديق له من الثّعالبة يقال له طارق ويكنّى أبا المُغلّس ، فنزل عليه فأحسن ضيافته وأكرم مثواه ، فقال له طارق : يا أبا الصّباح ، كلّ أمرك جميل وكلّ فعالك فعلى سبيل حزم وصواب تدبير ، غير أنّي أراك احتفرت جحرك بمكان سوء ، وانه لأحق منزل بترك (4) . فقال له

---

(1) أ٠ ان ٠

(2) أ٠ الترسيل ـ نرجح ان تكون لكلمة مصدر ترسل نظرا الى تضمن الكتاب لعدة رسائل مدرجة فى سياق القصة ٠

(3) أ٠ العالم ٠

(4) مثل ٠ انظر الميدانى : مجمع الامثال ، ج II ، ص 387 ٠

مرزوق : يا أبا المغلس ، وما الّذي أنكرت عليّ منه وغمصت (1) عليّ فيه ؟ ، فأنت من لا أتهم في عقله ونصيحته لأهل مودّته ، وما عقالك لهم بأنشوطة (2) وإنّي لعلى حبل ذراعك (3) ، والمؤمن مرآة أخيه (4) ، وقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال : « رحم الله من أهدى إلينا عيوبنا . » .

ـ فقال له طارق : إنّ أخاك من صدقك ، والشّفيقُ بسوء الظنّ مولعٌ (5) ، وإنّي أراك في واد عظيم ، وبه من آثار السّيل ما ترى ، وما تدري ما يحدث ، ولست آمن عليك أن يُدهمك منه باللّيل ما لا طاقة لك به ، وهو أحد الأبْهمين (6) ، والسّيل حرب للمكان العالي ، فنشدتك الله في نفسك وأهلك إلاّ تحوّلت من هذا الموضع، واستبدلت به غيره .

ـ فقال له مرزوق : فأنت من لا أتّهم في رأيه ومشورته ، وسأتقدّم إلى زوجتي في التّحويل .

وقام فدخل عليها فقال : يا هذه، قد كان فرط من خطائنا فى المقام بهذ االوادي ما كان يهلكنا حتّى أتاح الله لنا صديقنا (7) أبا المغلس،

---

(1) أ٠ عصمت ٠

(2) مثل ، مجمع ج II ، ص 278 ٠

(3) مثل ، مجمع ج II ، ص 388 ٠

(4) مثل ، انظر العقد الفريد ، ج III ص 77 ، وهو مقتبس من الحديث النبوى : المؤمن مرآة المؤمن ، انظر السيوطى : الجامع الكبير ، ج II ، ص 569 ٠

(5) مثل ، مجمع ج I ، ص 2 ٠

(6) مقتبس من المثل : سلط عليه الابهمين ، انظر مجمع ج I ، ص 344 ٠

(7) أ٠ صديقا ٠

فحذّرنا المُقام به ؛ وخوّفنا السّيل ونحن بقربه(1) ، وإنّه كان يقال : التّقدّم قبل التندم (2) ، فاجمعي إليك متاعك وانتقلي .

– فقالت له : ما هذا من صديقك بالنّصيحة لك ، ولكنّه رأى غضارة عيشك بهذا الوادي ، وقرب مغارك ، وبعد أعدائك ، فحسدك إياه ، ونحن به نزول منذ سنين فما رأينا من سيله ما [٢ ـ ظ] يسرو عنا وجحرنا / بالمعزل عن سَنَنه (3) ، فَزُلْ عن هذا الرّأي ولا تحفل به .

فخرج إلى طارق فأعلمه بخلاف زوجته عليه وما اعترضت عليه من خفض العيش وطول السّلامة .

فقال له طارق : يا أبا الصّباح ، إن لم تفْقَه معنى النّصيحة فنحن منك بحلّ (4) ، وانه كان يقال العزيمة حزم والاختلاط ضعف (5) ، وليس للنّساء رأي ، فلا تحملك زوجتك بلجاجها على أمر فيه عطبك ، وأعرف ذلك ممّا يقول طفيل الغنوي شعرا :

إنّ النساء كأشجار نبتن معا ... منهن مرّ وبعض المرّ مأكول

إن النساء متى يَنْهين عن خُلق ... فإنّه واجب لابدّ مفعول (6)

ثمّ ان طارقا ارتحل عنه ، وأقام مرزوق بمكانه ، فبينما (7) هو

---

(1) أ· بعقوبة ·

(2) أ· مثل ، مجمع ج I ، ص 136 ·

(3) أ· سنته ·

(4) أ· ان لم تسقط مغنا النصيحة فنحن معك بخير ·

(5) مثل ، مجمع ج II ، ص 35 ·

(6) البحر البسيط ·

(7) أ· فبانما ·

على تلك من حاله حتّى جاء السّيل فنظر إليه مرزوق فقال لزوجته : خذي الأمر بقوابله (1) ، فقد علمتِ ما قال القطامي (2) في شعره :

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتّبعه اتباعا

وقال بعض الحكماء : شرّ الرّأي الدَّبريُّ (3) ، وقال متمثلا (4) : قبل الرّمي يُراشُ (5) السّهم ، فالنّجاة الآن « ولات حين مناص » (6) .

— قالت له زوجته : ما كل أزَبّ نَفُورٌ (7) ، وقد يجيء في مثل هذا في سنة مرارا فما يصل إلينا أوله حتى ينقطعَ آخرُه فلا تخرجنا من وطننا فإنا به راضون .

وإنهما لعلى ذلك من مراجعتهما إذ دخل السيل عليهما ، فخرج الثّعلب من جحره ليهرب ، فاحتمله السيل ، فقصد لبعض ما جاء به السيل من الخشب فتعلّق به وأسلم نفسه ، فما نهنهه إلى أن قذف نفسه في البحر ؛ فلمّا رأى البحر قال يخاطب نفسه : استمسك فإنّك

---

(1) مثل ، مجمع ج I ، ص 231 .

(2) أ. القطامى ؛ ابيت من البحر الوافر ، انظر ديوان القطامى ، ص 40 .

(3) مثل ، مجمع ج I ، ص 258 .

(4) أ. ممتثلا .

(5) تراء آش ، انظر مجمع ج II ، ص 101 .

(6) قرآن ، س 38 ، ص آية 3 .

(7) مثل ، انظر الزمخشرى : المستقصى فى أمثال العرب ، ج II ، ص 223.

مَعْدُوٌّ بك (1) فأجاب نفسه عن نفسه : وكيف توقّى ظهر ما أنت راكبه (2) ؟ ثمّ تمثّل بقول أميّة حين قال :

يوشك من فرّ من منيّته في بعْض غِرّاته يوافقها
ما رغِبته النّفس في الحياة وإن عاشت طويلا والموت لاحقها
[3 - و] / يقودها قائد إليه ويحدوها سريعا إليه سائقها
من لم يمت عَبطة يمت هرما الموت كأس والمرء ذائقها (3)

ثمّ لم يزل يترامى به الموج حتّى ألقاه إلى جزيرة من جزائر البحر ؛ فلمّا استقرّت قوائمه على الأرض قال : من لم يفت لم يمت (4) ، ثمّ تمثّل بقول الأعشى شعرا :

شباب وشيب وافتقار وثروة فللّه هذا الدهر كيف ترددا (5)

فأقبل وأدبر يومه لا يسمع حسيسا ولا يرى أنيسا ، وأوحشه ذلك وظن أنّه هالك حتّى أصبح . فبينما هو في تردّده استقبله ذئب ، فسلّم عليه وسأله عن اسمه وكنيته فقال له الذّئب : اسمي مكابر وكنيتي أبو (6) الفراء ، فما أوقفك أيّها الثّعلب بهذه الجزيرة وليس لك فيها أكل ؟ ، فقص عليه الثّعلب قصّته وقال له : كيف أيْأسْتَنِي يا أبا الفراء من الطّعم بهذا الموضع ؟

---

(1) أ. مقدر بك مثل ، مجمع ج II ، ص 285 .
(2) نصف بيت للمتلمس وهو من البحر الطويل ، انظر العقد الفريد ، ج III ، ص 119 .
(3) البحر المنسرح ، انظر ديوان أمية بن أبى الصلت ، ص 50 .
(4) مثل ، مجمع ج II ، ص 181 ، والصيغة التى اوردها الميدانى : لم يفت من لم يمت .
(5) البحر الطويل ، انظر ديوان الاعشى ، ص 135 .
(6) أ. أبا .

ـ قال له الذّئب : إنّه ليس فيها إلاّ الظباء وبقر الوحش .

ـ فقال له الثّعلب : وما يمنعكم أن تصيدوها فأصيب من رسلكم ؟

ـ فقال له الذّئب : نحن ها هنا جماعة ما يتجرأ واحد منا أن يخرج من بابه شبرا واحدا، وإنا لمن الهزل والضرّ فيما ليس فيه خلق . قال له الثّعلب : وما دهاكم ؟ فقال له الذّئب : ها هنا نمر يقال له المظفر بن منصور قد تملّك على هذه الجزيرة وغلب عليها وهو من شراسته وبخله وضيق خلقه على ما قد عرفت من صفة النّمور ، واني لأكلمك وما آمنه فرَقا (1) أن يخرج فيرانا ، فتفرّقا وتواعدا موضعا خفيا يلتقيان فيه من غد .

فانصرف الثّعلب حزينا مغتما لما حزره من عداوة النّمور وعدم القوت ؛ ثمّ فكّر فقال : إنّما يعرف فضل عقل المرء في شدائد الأمور ونوازل الخطوب ، فأما عند الرخاء فما أقرب الجاهل من العالم ، والأحمق من العاقل ، وذلك ان مساعدة الدّنيا للجاهل ساترة لنقصه عن زيادة العاقل وحاجبة (2) عن التّمييز [3 ـ ظ] بينه وبين اللّبيب ؛ وليس لمثلي قوّة على (3) صيد الظباء وبقر الوحش وإنّما يصيد كلّ امرىء قدره ، وليس هاهنا إلاّ طلب (4) الحيلة .

فلمّا أصبح الصّبح قصد إلى المكان الذي وعد الذّئب فيه والتقيا هنالك عن رقبةٍ من النّمر فقال له الثّعلب :

---

(1) أ. برنا .

(2) أ. حاجتي .

(3) أ. عن .

(4) أ. الا لطلب .

– يا أبا الفراء (1) كنت مهموما بنفسي ، فزادني اهتماما ما أبْشَشْتنِي (2) من حديثك ، وألقيت إليّ من سوء حالك ، وها هنا تدبير إن أعنتني عليه بهمّة صادقة فلعلّه أن يعود إلى صلاح .

– فقال الذّئب : وما هو ؟

قال الثّعلب : ايت النّمر فَسَلْه أن يوليك ولاية تردّ عليك نفعا ، وتؤدّي (3) لك ذكرا ، وتكسبك حمدا .

– قال الذّئب : فأين ما أخبرتك على بخله وشراسة خلقه ؟ وانّه لكما قال القائل : سواء هو والعدم (4) .

– قال الثّعلب : فأعلمه أنّك لا تصيد (5) شيئا إلاّ بعثت إليه بشطره، فإنّ لك فيما يبقى منتفعاً وصلاحا ؛ فإن أجابك فلن تعدم منّي معونة حسنة وقياما بالذي يجب، فكن كما قال الشّاعر :

وليس الرّزق عن طلب حثيث ولكن ألقِ دلوك في الدّلاء
يجيئك بمليها طورا وطورا تجيء بحمأة وقليل ماء (6)

---

(1) أ· العراء ·
(2) أ· أبثتني ·
(3) أ· تود ·
(4) مثل ، مجمع ج I ، ص 338 ·
(5) أ· فاعمل انك لا تفيد ·
(6) البحر الوافر والبيتان منسوبان الى أبى الاسود الدؤلى ، انظر الاغانى ، ج XII ، ص 330 ، وصيغة صدر البيت الاول حسب الاغانى هى : وما طلب المعيشة بالتمنى ·

— قال الذّئب : يا أبا الصّبّاح ، انّه كان يقال : اتّقوا مقارنة الحريص الغادر فإنّه ان رآك في القوّة رأى منك أخبث حالاتك ، وان رآك في الفضول لم يدعك وفضولك .

— قال الثّعلب : يا أبا الفراء (1) ، انّه ليس الرّي عن التّشافّ (2) ؛ من عاش غير خامل الذّكر والمنزلة إذا أفضل على نفسه وأصحابه فهو ، وإن قلّ عمره ، طويل العمر ؛ ومن كان عيشه في ضيق وقلّ خيرَه (3) على نفسه فهو وإن طال عمره قصير العمر .

— قال الذّئب : انّه كان يقال في أمور ثلاثة لا يجترىء عليها إلاّ أهوج ولا يسلم منها إلاّ قليلٌ : صحبة السّلطان ، وائتمان النّساء على الأسرار ، وشرب السُمّ على التّجربة (4) .

— قال الثّعلب : قد يُبْلَغُ الخَضْمُ بِالْقَضْمِ (5) ويركب الصّعب من لا ذلول له (6) ، وليس يواظب على باب السلطان أحد فيلقى عن نفسه الأَنفة ، ويتحمّل الأذى ، ويكظم الغيظ ، ويرفق بالنّاس ، إلاّ خلص إلى حاجته من السّلطان (7) .

[4 — و] — قال الذّئب : إنّه كان يُقال : لا / تغتبط بسلطان مع غير عدل ولا بغنى من غير حلّ ، ولا ببلاغة من غير صدق ، ولا بجود من غير إصابة ، ولا بحسن عمل من غير خشية .

---

(1) أ٠ العراء ٠
(2) ليس الرى عن الشافى ، مثل مجمع ج II ، ص 190 ٠
(3) انظر كليلة ودمنة ، ص 64 ٠
(4) انظر كليلة ودمنة ، ص 67 ٠
(5) أ٠ قد يبلغ الخصم الفضح ، مثل مجمع ج II ، ص 93 ٠
(6) مثل ، مجمع ج II ، ص 417 ٠
(7) انظر كليلة ودمنة ، ص 66 ٠

ـ قال الثّعلب : إنّه ينبغي للعاقل أن يداري الزّمان مداراة الرجل السّابح في الماء الجارى وقال متمثّلا (1) : ارْض من المركب بالتّعليق (2) .

ـ قال الذّئب : السّبب الّذي يدرك به العاجز حاجته هو السبب الّذي يحول بين الحازم وطلبته .

ـ قال الثّعلب : المال زيادة في القوت والرأي ، وليس الاخوان والأهل والأعوان إلاّ مع المال ، ولا يُظهر المروءة إلا المال ، الأنّ من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمرا قعد به العدم فقصر عنه (3) .

ـ قال الذّئب : إنّ للسّلطان سكرات/فمنها الرّضى عن بعض من يستوجب السّخط ، والسخط عن من يستوجب الرّضى ، ولذلك قيل : قد خاطر من لجّ في البحر ، وأشدّ منه مُخاطرة من صحب السّلطان (4) .

ـ قال الثّعلب : من لم يركب الأهوال على صعوبتها لم ينل الرّغائب ، ومن ترك الأمر الّذي لعلّه أن يبلغ فيه حاجته مخافة ما لعلّه يُوقّاه فليس ينال جسيما ، وقد كان يقال : أعمال ثلاثة لا أحد يستطيعها إلاّ بمعونة ارتفاع همّة وعظم خطر : صحبة الملوك ، وتجارة البحر ، ومناجزة العَدوّ (5) .

---

(1) المتثل .
(2) أ. ارضى من المركب بالتعلق ، مثل مجمع ج 1 ص 301 ، انظر ايضا المستقصى ج 1 ، ص 141 .
(3) انظر ابن المقفع : الادب الصغير ، ص 52 ، كليلة ودمنة ، ص 287 .
(4) انظر كليلة ودمنة ، ص 94 .
(5) انظر كليلة ودمنة ، ص 67 .

فأعجب الذّئب كلامه ، فأتى النّمر ، فشكر له ، وأقام بين يديه ، وكان لا يعرفه بمثل هذه (1) الذلّة ، فافتتح الكلام فقال : أيّها الملك ، إنّي لما أنا عليه من المناصحة والموالاة تأملت باب الملك ، فوجدته خاليا من صالح الأعوان وثقات الخدم ، ولما رأيت الملك كثير الكلف ، عظيم المؤن ، رحب العناء ، جزل العطاء ، وليس له من عبيده من يعينه على مؤنه ، ويكفيه الهمم من عمله ، ندبت نفسي للّذي رأيتُني أقوى عليه من حسن السّياسة ، وضبط النّاحية الّتي ، أتولاها ، ورد المنفعة على المُلك منها.

فأعجب النّمر كلامه وطمع فيما وعده فقال له : صدقت وبررت وأنا مستكفيك ومقلدُك ، فانظر كيف يكون ضبطك وكفايتك
[4 - ظ] وغناؤك ووفاؤك بما شرطت على نفسك؛ اكتب له يا غلام عهده على مناهل الظباء واجمع له أعمال ما هنالك .

فخرج الذّئب إلى عمله ، واستخلف الثّعلب ، وأحلّه محل الوزير الكاتب . فلمّا صار إلى تلك النّاحية كمن الذّئب على شريعة الطّريق ، وربأ له الثّعلب ، فأقبلا يصيبان كلّ يوم حاجتهما حتّى صلحت أحوالهما ، ورقّت أوبارهما ، وصفت ألوانهما ، وتَفَتّقتْ سِمَنا جلودُهما ، وخاس الذّئب بعهده ، وأخلف وعْدَه ، حتّى اشتدّ ذلك على النّمر ، فأمر بالكتاب إليه نسخته :

---

(1) بمثل بهذه .